حديث الأنبياء (٨)

يوسف الصديق

عليه السلام

اسم الكتاب: يوسف الصديق عليه السلام.

اسم المؤلف: إبراهيم أحمد قشطة.

الطبعة الثانية: ١٤٤٤هـ – ٢٠٢٢م.

يوسف الصديق
عليه السلام

أ/ إبراهيم أحمد قشطة

رفح – فلسطين
١٤٤٤هـ - ٢٠٢٢م

الطبعة الثانية
طبعة مزيدة ومنقحة

الإهداء

إلى والدي – قدّس اللهُ روحَه – الذي علمني أنَّ الرجال يصنعهم العرق.

إلى والدتي – رزقها اللهُ حسنَ الخاتمة – التي علمتني أنَّ الكلمة الطيبة شجرة وارفة يستظلّ تحتها الناس من قيظ الحياة.

إلى شيوخي وأساتذتي الذين علموني أنَّ الإسلام دين عظيم لو أن له رجال.

إلى زوجتي التي علمتني أنَّ مَنْ لا يحبّ صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر.

إلى أُختيّ اللتين تعلمت منهما أنَّ الأخوة مشاعر جميلة حميدة.

إلى أبنائي أحمد وتسنيم ولمى ومحمّد الذين علموني أنَّ الأبوة أحلى المعاني.

المحتويات

امرأة العزيز تكيد لعازلاتها.

إني أخاف الله .

يوسف في السجن:

- رؤيا صاحبي يوسف في السجن.
- يوسف يدعو إلى الله في السجن.
- يوسف يفسر المنامين

رؤيا الملك.

تذكر الناجي أمر يوسف

تفسير يوسف منام الملك.

الملك يأمر بإخراج يوسف من السجن

الملك يحقّق في قضية يوسف.

خروج يوسف من السجن .

يوسف عزيز مصر.

اللقاء الأول بين يوسف وإخوته.

إعادة يوسف الثمن خلسة لإخوته.

محاولة إخوة يوسف إقناع أبيهم بالموافقة على شرط العزيز.

موافقة يعقوب على ذهاب بنيامين إلى مصر.

حيلة يوسف لإبقاء بنيامين عنده .

إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل.

استعطاف إخوة يوسف.

تشاور أخوة يوسف .

محنة يعقوب الثانية.

تألّم أبناء يعقوب على أبيهم.

المقدّمة

إنَّ الحمد الله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمّدا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ (الأحزاب: ٧٠ - ٧١)

أمّا بعد:

فإنَّ أصدق الحَديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار، أعاذنا الله من البدع والضلالات والنيران.

وبعد:

هذا الكتاب الثامن من سلسلة (حديث الأنبياء) والموسوم باسم (يوسف الصديق عليه السلام)، ويروي هذا الكتاب خبر يوسف مع إخوته المَكرة والنسوة الكائدة، حتى ختم الله له بالمُلك والتمكين.

وقصّة يوسف الصدّيق عليه السلام، هي نسخةٌ مكررةٌ لمكر الإخوة وكيد النسوة لسكان هذا الكوكب الأرضي على مرّ الزمان وكرّ الأيام، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وقد اجتهدتُ في هذا الكتاب أن أعرض سيرةِ يوسف الصدّيق وأبيه يعقوب عليهما السلام، وذلك من خلال فصلين:

حيث جاء الفصل الأوّل (يوسف – عليه السلام – بين مكر الإخوة وكيد النسوة): متحدّثاً عن حبّ يعقوب ليوسف، والرؤيا التي رآها يوسف وهو صغير، وما كان من مكر إخوته له، وكيف حماه الله من مكرهم وإخراجه من البئر.

كما وعرض الفصل أشدّ محنة تعرض لها يوسف في حياته، وهي محنة مراودة امرأة العزيز له، وما أعقبها من دخوله للسجن ظلماً، وكيف قدّر الله له الخروج من السجن معززاً مكرماً، مرفوع الرأس والهامة، برئ السمعة والساحة، مرهوب الجانب والمكانة، وذلك بسبب رؤيا رآها الملك.

وعدّد الفصل نعم الله على يوسف من: خروجه من البئر، ومروراً بالتمكين له في أرض مصر، حتى التئام شمله بأهله بعد أن نزغ الشيطان بينه وبين إخوته المذنبين التائبين، وكما عرض الفصل حيلة يوسف الذكيّة لإبقاء بنيامين عنده في مملكته القويّة،

ومن ثَمَّ عفوه الجميل عن إخوته، وذكر الفصل خبر قميص يوسف العجيب، وعودة بصر يعقوب المذهل الغريب.

كما وناقش الفصل الإسرائيليّات الواردة في قصّة يوسف، والتي ما فتئت تشوه قصّته الطاهرة التقيّة، والطعن في نزاهته البريّة النقيّة.

وخُتِمَ الفصل بنقاش طويل لقضيتين مهمتين في قصّته الطاهرة: القضية الأولى واقعة الهمّ، وأمّا القضية الثانية برهان يوسف.

أمّا الفصل الثاني (الفوائد المستفادة من قصّة يوسف): تناول أهمَّ الثمار المستطابة في قصّة يوسف عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة وأتمّ التسليم.

الفصل الأوّل

يوسف – عليه السلام – بين مكر الإخوة وكيد النسوة

قال تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ٤﴾ (يوسف: ٣ – ٤)

الفصل الأوّل:

يوسف – عليه السلام – بين مكر الإخوة وكيد النسوة

◎ تمهيد:

يوسف نبي كريم وهو من ذرّيّة إبراهيم لا محالة[1]، فهو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ، يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ خليلِ الرحمنِ.**" (رواه البخاري: (٣٥٢٥)، والترمذي: (٣١١٦)، وأحمد: (٨٣٩١) واللفظ له)

والإنسان يشرف بآبائه وعشيرته إذا كانوا أتقياء، وكان هو على شاكتهم وطريقتهم، وصدق الله: ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾ (آل عمران: ٣٤)

وقد وصفه سبحانه في كتابه بالصدّيق (أي: كثير الصدق)، قال تعالى: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ

---

(١) **لطيفة لغوية:** يوسفُ اسمٌ عبرانيٌّ؛ إذ لو كان عربياً لانصرف (أي: لَقَبِلَ التنوين)، وفي يوسف ثلاث لغات: يوسُف بضم السين، ويوسَف بفتحها، ويوسِف بكسرها.

يَأۡكُلۡهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (يوسف: ٤٦)

وذكره تعالى في ستة وعشرين موضعاً من القرآن العزيز، وأنزل سبحانه في شأنه وما كان من أمره سورة كاملة حملت اسمه، والتي قال تعالى في أوائلها: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾ (يوسف: ٣ – ٤)

وفي هذا الفصل البديع سنعرف قصّة يوسف العجيبة مع إخوته المكرة ونسوة مصر الكائدة، حتى ختم الله له بالمُلك والتمكين، ولله الأمر من قبلُ ومن بعدُ!

◎ حبّ يعقوب ليوسف عليهما السلام:

كان ليعقوب أبناء كُثر، يُقدروا بحوالي اثني عشر ذكراً، وقد كان يوسف أكثرهم قرباً ومحبّة من أبيه يعقوب، وقد شعر أبناء يعقوب بذلك، حتى أنهم صرحوا به فيما بينهم: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ (يوسف: ٨) أي: " حلفوا فيما يظنّون: والله ليوسف وأخوه، يعنون بنيامين أحبّ إلى أبينا منا ونحن جماعة." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وتأمّل – يا رعاك الله –: لم يذكروا إخوة يوسف بنيامين باسمه، بل قالوا: (وأخوه)؛ وكأنّ محبّة يعقوب لبنيامين، كانت بسبب كون بنيامين شقيقًا ليوسف!

هل يلام يعقوب على ذلك الحبّ؟

الجواب: لا يلام يعقوب على ذلك الحبّ؛ حيث " إنَّ البشر بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض دون بعض؛ لذلك كان صلى الله عليه وسلم يَقْسِمُ ويعدل ويقول: **اللهمَّ هذا قَسَمي فيما أملِكُ فلا تلُمْني فيما تملِكُ ولا أملِكُ** (يعني القلب).[(١)]"

(محمّد الحفناوي)

ومعنى الحَديث: إنّ تسويتي بين زوجاتي في المبيت ونحوه هو ما أملك التسوية فيه، أمّا الحبّ والميل القلبي إلى إحداهن دون غيرها فهذا ملكك أنتَ يا أللهُ، فلا تلمني في عدم التسوية فيه، فإنّ القلوب بيدك تقلبها كيف تشاء.

وعليه يعقوب بحكم الخلقة البشريّة والغريزة الفطريّة قدم يوسف في المحبّة فقط، وهذا ممّا لا يلام عليه الأب، أمّا تفضيل الأب بعض الأبناء بأكثر من المحبّة فهذا الذي يلام عليه الأب، وهذا الذي يُورث الحقد والكراهية بين الأبناء، وربما يصل إلى الأحفاد.

---

(١) رواه أبو داود: (٢١٣٤)، والترمذي: (١١٤٠)، وابن ماجه: (١٩٧١)، وأحمد: (٢٥١٥٤))

◎ رؤيا يوسف:

عندما كان يوسف طفلاً صغيراً لم يبلغ الحُلُم بعد، أنه رأى في المنام رؤيا عجيبة غريبة، فقد رأى في نومه أنّ أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر قد سجدوا له، فهاله ذلك الأمر، واستعظم تلك الرؤيا، وأوّل شيء قام به عند استيقاظه من نومه هو أن قصّها على أبيه يعقوب.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ (يوسف:٤)

أي: اذكر يا محمّد خبر يوسف لقومك، حينما قال يوسف لأبيه يعقوب: يا أبتِ إني رأيت رؤيا عجيبة، رأيت أنَّ أحدَ عشرَ كوكباً والشمس والقمر قد خرّت لي ساجدة.

وكأنّ الأحد عشر كوكباً هم إشارة إلى بقية إخوته، والشمس أمّه، والقمر أبيه.

وقال السعدي: " ومن المناسب أن يكون الأصل أكثر نوراً وجُرْماً، لِما هو فرع منه، فلذلك كانت الشمس أمّه، والقمر أباه، والكواكب إخوته، ومن المناسبة أنّ الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمّه، والقمر والكواكب مذكرات، فكانت لأبيه وإخوته."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

" فكانت هذه الرؤيا مقدّمة لِما وصل إليه يوسف – عليه السلام – من الارتفاع في الدنيا والآخرة، وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام قدم بين يديه مقدّمة له وتوطئة له."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

زيادة وتفصيل:

١. **لِمَ أعاد يوسف لفظ الرؤيا مرّتين في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤)؟**

قال الرازي: " قال القفال رحمه الله: ذكر الرؤيا الأولى لتدلّ على أنه شاهد الكواكب والشمس والقمر، وأعاد الثانية ليدلّ على مشاهدة كونها ساجدة له.

وقال بعضهم: أنه لما قال ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ فكأنه قيل له: كيف رأيتَ؟ فقال: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾" (الفخر الرازي)

٢. **لِمَ لم يدرج يوسف الشمس والقمر ضمن الكواكب؟**

لم يدرجهما ضمن الكواكب لإظهار فضلهما على الكواكب؛ لأنَّ التخصيص بالذكر يدلُّ على مزيد الشرف، كما في قوله:

﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ
وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ ٩٨﴾ (البقرة: ٩٨)

٣. كم كان عمر يوسف عندما رأى هذه الرؤيا العجيبة؟

قال المفسرون: " كان سنّه إذ ذاك اثني عشر سنة، وبين هذه الرؤيا واجتماعه بأبيه وإخوته أربعون سنة."

(محمّد الصابوني)

والذي يظهر أنّ هذا القول مأخوذٌ من الإسرائيليّات؛ **لذا الصواب أن يقال:** يوسف قد رأى هذه الرؤيا وهو صغير لا محالة، أمّا القطع بتحديد سنّه – عليه السلام – عند رؤيته هذه الرؤيا، فذلك يحتاج لدليل صحيح، ولا يوجد دليل، فمن أين لنا أن نقطع بهذا السنّ؟!

٤. أخبر يوسف عن هيئة الكواكب التي رآها بقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ (يوسف:٤)، وكلمة (ساجدين) لا تليق بالكواكب الجمادات التي رآها؛ لأنّ كلمة (ساجدين) تطلق في حقّ العقلاء، فكان من المناسب أن يخبر عنها بساجدة أو ساجدات، فيقول: (رأيتهم لي ساجدة أو ساجدات)، فكيف جازت اللفظة المخصوصة بالعقلاء في حقّ الجمادات؟

قال الرازي: " لمّا تعالى وصفها بالسجود صارت كأنها تعقل، فأخبر عنها كما يخبر عمّا يعقل." (الفخر الرازي)

فائدة إملائية: كلمة (الرؤيا) تكتب بالألف هكذا: (رؤيا) إذا كانت بمعنى ما يُرى في النوم وتجمع رؤى، بينما تكتب بالتاء المربّوطة هكذا: (الرؤية) إذا كانت بمعنى الإبصار بالعين.

◎ طلب يعقوب من يوسف كتمان رؤياه عن إخوته:

سمع يعقوب رؤيا يوسف، وقد كان يعقوب على علم بتفسير الأحلام، وفَسرها يعقوب هكذا بأنّ يوسف سيكون له شأن كبير، وسيبلغ مبلغاً عظيماً، وسَيُنْعِمُ الله عليه بشرف الدارين، وسيحظى برضى الوالدين، وبالجملة سيظهر عليهم[١].

(١) ولم يبال يعقوب بذلك من نفسه، فإنّ الرجل يَوَدّ أن يكون ولده خيراً منه، وإنما الأخ لا يرد ذلك لأخيه، وبذلك نفهم لِمَ لم يحسد يعقوبُ يوسفَ؟!

هكذا فسر يعقوب رؤيا يوسف وهكذا فهمها؛ لذا أمره بكتمانها، وألّا يقصّها على إخوته، فقد أحسّ يعقوب بحقد أبنائه على يوسف، ومثل هذه الرؤيا ستزيد حقدهم عليه، وربّما يناله مكروه منهم، فقال له: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ﴾ (يوسف: ٥) أي: قال يعقوب له: يا بني[١] لا تخبر إخوتك بهذه الرؤيا، فيحملهم حقدهم عليك بسببها أن يحتالوا لإهلاكك بحيلة ماكرة لا تقدر على ردّها، وأَكّدَ على كتمانها، بالتنوين في قوله (كيدًا)؛ وذلك زيادة في تحذيره من قصّ رؤياه عليهم.

وقد جاءت هذه الآية كتعليل للنهي عن قصّ رؤياه على إخوته، ولهذا جاء في الحَديث الصحيح: " **استعينوا على نجاح الحوائج بالكتمان لها، فإنّ كلّ ذي نعمة محسود.**" (رواه الطبراني والبيهقي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: (١٤٥٣))

وتأمّل – وفقك الله للحقّ –: نَسَبَ يعقوبُ الكيدَ إلى الشيطان حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾ (يوسف: ٥) وذلك حتى لا يستثير الكراهية في نفس يوسف لإخوته!

---

(١) في قول يعقوب – عليه السلام– (يا بني) إشعار بشفقته على يوسف، وتلطف معه كبير.

تصحيح: قال الصابوني: " الظاهر من النصّ القرآني أنّ يوسف – عليه السلام – قد قصَّ الرؤيا على والده في غيبة إخوته، وأن أباه قد أوصاه بعدم إخبار إخوته بما رأى، وعبارة التوراة تفيد أنّ ذلك كان بحضرة إخوته، وأن أباه انتهره على هذا القول قائلاً: لعلَّنا نسجد لك أنا وأمُّك وإخوتك، قالها متهكماً، وهذا الذي ذُكر في التوراة خطأ؛ لأنَّ التوراة محرفة قطعاً، والصحيح ما ذُكر في القرآن الكريم." (محمّد الصابوني)

الحاصل: بعدما طلب يعقوب من يوسف كتمان رؤياه عن إخوته بشره ببشرى جميلة حميدة ثانية، وهي: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ (يوسف: ٦) أي: وكما أراك هذه الرؤيا الفاضلة الشريفة، كذاك سيصطفيك الله لحمل رسالته لبني إسرائيل، فالاجتباء يقصد به هنا النبوّة.[١]

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾ (يوسف: ٦) أي: ويعلمك تفسير المنامات والأحلام.

(١) وقال آخرون: " المراد (بالاجتباء) إعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة" (الفخر الرازي)

﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ (يوسف: ٦) أي: ويكمل نعمته وفضله عليك ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ﴾ (يوسف: ٦) أي: بسببك سيحصل لهم خيريّ الدنيا والآخرة ﴿كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ (يوسف: ٦) أي: ويكمل النعمة عليك كما أتّمها على آبائك من قبل إبراهيم وإسحاق، وقد عبّرت الآية عن إبراهيم وإسحاق بأنهما أبوان ليوسف، بالرغم من أن إبراهيم جدّ أبيه، وإسحاق جدّه، للإشعار بكمال ارتباطه بالأنبياء، وللمبالغة في إدخال السرور إلى قلبه ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (يوسف: ٦) أي: الله عليم بما يمنحك، حكيم في فعله بك.

تساؤلان:

١. لِمَ بشر يعقوب ابنه يوسف بهذه البشريات؟

لعلَّ يوسف قد استشف من أمر أبيه يعقوب له بكتمان رؤياه عن إخوته، أنه سيتعرض للمحنّ، فطيب يعقوب قلبه بذكر هذه البشريات له، والله أعلم.

٢. ما المراد بإتمام النعمة في قوله: ﴿وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ (يوسف: ٦)؟

ذكر المفسرون أقوالاً ثلاثة:

القول الأوّل: إتمام النعمة: المراد به الاجتباء بالنبوّة، وهذا القول هو قول: مَنْ فسر الاجتباء بإعلاء الدرجة وتعظيم المرتبة.

القول الثاني: إتمام النعمة: هي خلاصُه من المحنّ.

القول الثالث: إتمام النعمة: هي وَصْلُ نعمة الله عليه في الدنيا بنعمه عليه في الآخرة، بأن جعله في الدنيا نبيًّا ومَلِكاً، ونقله عنها إلى الدرجات العلى في الجنّة.

◎ مكر إخوة يوسف:

امتلأت قلوب أبناء يعقوب على أخيهم يوسف حقداً وغيظاً، ومن دون جريرة من يوسف أو يعقوب، إنما بسبب ما أحرزه يوسف من جمال المنظر والهيئة، وجميل الأخلاق والسمعة، وحبّ الجميع له بما فيهم أبيهم يعقوب وجميع القوم والعشيرة.

وقد كان إخوة يوسف في سنّ الشباب وطيش الحداثة، فاضمروا ليوسف الشرّ، وأخذوا يتشاورون فيما بينهم كيف يخلو لهم قلب أبيهم محبّة وقرباً؟!

قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ﴾ (يوسف: ٨) أي: قالوا فيما بينهم: والله ليوسف وأخوه

أحبّ منا عند أبينا، ونحن جماعة ذو عدد نقدر على النفع والضرّ بخلاف هذين الصغيرين.

واللام في (ليوسف) لتأكيد أن زيادة محبّة أبيهم ليوسف وأخيه أمر ثابت، لا يقبل التردد أو التشكّيك.

وتأمّل: قال إخوة يوسف: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ وهذا من عجيب مقالاتهم، فلم يقولوا: ليوسف وأخونا أحبّ إلى أبينا منا، بل قالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾ حيث صوروا بنيامين أخ يوسف وليس بأخيهم، مع أنهم جميعاً إخوان أشقاء لأب واحد وأمّ واحدة[1]، والذي دفعهم أن يقولوا ذلك: حقدهم على يوسف وأخيه.

ثم نسبوا أباهم إلى الضلال المبين: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف: ٨) أي: إنّ أبانا أخطأ خطأً بيّناً في إيثار هذين الاثنين على العشرة، وكأنهم استجازوا لأنفسهم بإطلاق هذا الحكم الباطل على أبيهم أن يقولوا: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ

---

(١) ذُكر أن يوسف وبنيامين كانا شقيقين بينما سائر الإخوة لم يكونوا أشقاء ليوسف وبنيامين، وهذا القول لا دليل شرعي صحيح عليه؛ **لذا الصواب:** كان أبناء يعقوب جميعاً أشقاء، لأب واحد وأمّ واحدة، والله أعلم.

أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ ٩﴾ (يوسف: ٩) أي: حتى يصفو لكم حبّ أبيكم، ويقبل عليكم بالمحبّة والميل اقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض بعيدة مجهولة، ثم توبوا من بعد ذلك الذنب، وكونوا قوماً صالحين.

ويا للعجب! انظر ماذا يفعل الحقد والبغض والكراهية؟!

ذكروا أمرين مُرّين: القتل، أو الغربة!

والغربة لا تقل صعوبة عن القتل.

حَسّنوا القَوْلَ وَقالوا غُرْبَةً * * * إنّما الغُربةِ لِلأحرارِ ذَبْحٌ

وفي أثناء هذا التشاور القاطع للرحم، العاق للأب، إذ بأحدهم يعرض عليهم رأياً: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ (يوسف: ١٠) فقد قال أحد الإخوة: " إن كنتم لا محالة فاعلين، فلا تقتلوه بل ألقوه في قعر بئر، فإذا مرّ على البئر مسافرون، أخذوه معهم، وباعوه بعيداً عن أبيه." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

وبعد أخذ وردّ استحسن إخوة يوسف هذا الرأي.

قال محمّد بن إسحاق: " لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم، وعقوق الوالد، وقلّة الرأفة بالصغير الذي لا ذنب له، (وليفرقوا بين يعقوب وحبيبه يوسف) على كبر سنّ يعقوب ورقّة

عظمه، وصغر سنّ (يوسف)، وحاجته إلى لطف والده، وسكونه إليه، يغفر الله لهم وهو أرحم الراحمين، فقد احتملوا أمراً عظيماً." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وبالرغم من أنّ هذا الرأي اشتمل على ظلم كبير وقطع للرحم بيّن عظيم إلّا أنه كان أهون الشرّ من رأي غيره.

زيادة وتفصيل:

١. نسب أبناء يعقوب إلى أبيهم الضلال المبين حينما قالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وفي ذلك مبالغة منهم في الطعن والذمّ، ومن المعلوم أنَّ مَنْ بالغ في الطعن في الرسول فقد كفر لا سيما إن كان الطاعن ولداً، فإنّ حقّ الأبوة يوجب مزيداً من التعظيم، فكيف أجازوا لأنفسهم ذلك؟!

قال الرازي: " المراد بالضلال هنا: الضلال في رعاية المصالح في الدنيا، لا البعد عن طريق الرشد والصواب."

(الفخر الرازي)

وقال القرطبي: " لم يريدوا ضلال الدين إذ لو (أرادوه) لكانوا كفاراً، بل أرادوا لفي ذهاب عن وجه التدبير، في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه، وقيل: لفي خطأ بيّن بإيثاره يوسف وأخيه علينا." (القرطبي: ٢٠٠٢)

٢. لِمَ ذكر إخوة يوسف الوجه دون سائر الأعضاء في قولهم:
﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾
(يوسف: ٩)؟

قال الدرويش: " وإنما ذكر الوجه؛ لأنَّ الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل عليه بوجهه؛ لأنَّ أوّل ما يستقبل الإنسان الوجه، فعبّر به عن إقباله عليهم وعدم الالتفات إلى غيرهم، وانتفاء المشارك لهم في حبّ والدهم." (محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

٣. لِمَ قدم إخوة يوسف العزم على التوبة قبل فعل الذنب؟

قال السعدي: " فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلاً لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطاً من بعضهم بعضاً."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

فائدة فقهية: قال القرطبي: في قوله: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ﴾ (يوسف: ٩) دليل على أنّ توبة القاتل مقبولة؛ لأنّ الله تعالى لم ينكر هذا القول منهم." (القرطبي: ٢٠٠٢)

◎ إخوة يوسف ينفذون مكرهم:

بعدما استقرَّ رأي إخوة يوسف على ذلك الرأي الشرير وهذا الشرّ المستطير، أخذوا يمعنون التفكير في كيفية تنفيذ ذلك الشرّ الأسود النكير، فبدأوه بأن جاءوا يتحايلون على أبيهم بمكر ودهاء: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ١١ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾

(يوسف: ١١-١٢)

أي: " لِمَ تخافنا عليه ونحن نحبُّه، ونريد الخيرَ به؟ أرسله معنا غدًّا إلى البادية (الصحراء)؛ ليرتع (أي: ليتسع في أكل ما لذّ وطاب)، وليلعب (أي: ليلهو بالاستباق وغيره)، ونحن نضمن لك حفظه من كل سوء ومكروه، وأَكدَوا كلامهم بأن واللام وهم كاذبون." (محمّد الصابوني)

وتأمّل – يا رعاك الله –: نادى أبناء يعقوب أباهم بلفظ الأبوة (يا أبانا)؛ ليستميلوا قلب أبيهم بهذا النداء، وليحركوا عاطفته نحوهم، حتى يعدل عن تصميمه على عدم خروج يوسف معهم!!

والاستفهام في قولهم: ﴿مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۬نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ غرضه التعجب من عدم ائتمانهم عليه بالرغم من أنهم إخوانه، ويبدو أنهم قد حاولوا محاولات عدّة قبل ذلك في اصطحابه معهم، ولكنهم فشلوا، فتساءلوا هذا التساؤل، والله أعلم!

الحاصل: كان هذا الكلام منهم توطئة ماكرة، وبداية خبيثة ليأخذوا يوسف من رعاية أبيهم وحفظه.

سمع يعقوب هذا الاقتراح الماكر من أبنائه، وبإحساس قلب الأب تخوف يعقوب منه، فاعتذر اعتذاراً لطيفاً عن إرساله معهم، فقال لهم: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ﴾ (يوسف: ١٣) أي: إنني يشقّ عليّ فراقه ساعة من نهار، وأخشى أن تنشغلوا في لعبكم وما أنتم فيه لاهون، فيأتي الذئب فيأكله، ولا يقدر يوسف على دفعه عن نفسه لصغره، وغفلتكم عنه.

وبرغم من أن هذا الاعتذار الأبوي العفوي الرقيق قد حمل من مشاعر الأبوة الصادقة الحانية ما حمل إلّا أنه لم يوقف حقد أبنائه القساة، فاِسْتَمَرّوا في كيدهم، وأجابوا أباهم بجواب يقطع كل حجّة تمنعهم من تنفيذ شرّهم، فقالوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ (يوسف: ١٤) أي: لئن هجم عليه الذئب فأكله من بيننا ونحن – كما ترى – جماعة أقوياء أشداء إنَّنا إذاً لهالكون عاجزون.

وهكذا مَكَرَ إخوة يوسف حتى نجحوا في النهاية في انتزاع يوسف من رعاية أبيه، ولمّا خرجوا به إلى الصحراء مبتعدين،

وعن أعين الناس مستترين، نفذوا شرَّهم العظيم المستطير الذي اضمروه لأخيهم البريء الصغير، ألا هو إلقاؤه في قعر بئر مظلم بعيد!!

هكذا في لحظة خاطفة أُنتزعت منها مشاعر الرحمة الإنسانيّة، وحلّت مكانها القسوة الشيطانيّة، أُلقي يوسف في قعر بئر مظلم بعيد!!

فحلّت على يوسف المحنةُ الأولى، وهي: محنة الجبّ!!

زيادة وتفصيل:

١. لِمَ ذكر أبناء يعقوب الرتع واللعب بالذات في حقّ يوسف؟

ذكر أبناء يعقوب لأبيهم الرتع واللعب في حقّ يوسف بالذات؛ لأنهما ممّا يأنس به يوسف الصغير ويحبّه، وهذا كله للاحتيال حتى يسمح لهم أبوهم بإرساله معهم.

وفي ذكر اللعب والرتع في حقّ يوسف إشارة ضمنية بأنّ يوسف كان صغيراً عند تعرضه لهذه المكيدة؛ لأنّ اللعب والرتع يقال غالباً في حقّ الصغار.

٢. لِمَ خصَّ يعقوب الذئب بالذكر من بين سائر الحيوانات؟

ذكر: أن الذئب خصَّ بالذكر من بين سائر الحيوانات؛ ليشعرهم بأن خوفه عليه ممّا هو أعظم من الذئب توحشًا وافتراسًا أشدّ وأولى.

ويحتمل: لأنَّ الأرض التي هي وجهتهم كانت كثيرة الذئاب، والله أعلم.

٣. يعقوب كان يشعر بسوء نوايا بنيه تجاه يوسف، فلِمَ وافق على إرساله معهم؟

الذي يظهر أنّ يعقوب وافق على إرساله معهم رغم توجّسه من أبنائه؛ لينفذَ قدر الله أوّلاً، وثانيًا أنه قد صدّقهم عندما أقسموا له بأنهم سيحافظون عليه وسيعيدونه سالماً، وثالثًا رغبة من يعقوب في أُنس يوسف الصغير؛ لأنّ الذهاب في مثل هذه الرحلات الخلويّة الممتعة ممّا تؤنس الصغار الذين هم في مثل عمر يوسف.

◎ يوسف في قعر البئر:

لم يفق يوسف من هول هذه المفاجأة إلّا وهو في قعر بئر مظلم بعيد، ليس معه من أحد إلّا رعاية الله وحفظه، فطمأنه الله تعالى وحياً: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (يوسف: ١٥) أي: إنه لا بدَّ لك من فرج ومخرج من هذه الشدّة التي أنت فيها، ولتخبرنّ إخوتك بصنيعهم هذا في حال أنتَ فيه عزيز، وهم محتاجون إليك خائفون منك.

هل كان هذا الوحي وحي رسالة؟

الذي يظهر أنّ هذا الوحي لم يكن وحي رسالة، والأقرب أنه كان وحي إلهام.

قال الأنصاري: " كان وحي إلهام لا وحي رسالة؛ لأنه يومئذ لم يكن بالغاً." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

وسيأتي بحث ذلك قريباً إن شاء الله تعالى.

ما الحكمة من هذا الوحي؟

قال الرازي: " وفائدة هذا الوحي تأنيسه، وتسكين نفسه، وإزالة الغمّ والوحشة عن قلبه، بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة." (محمّد الصابوني)

◎ دموع التماسيح:

ارتكب أبناء يعقوب جريمتهم الشنعاء، ثم عمدوا إلى خُدعتهم النكراء، بأن عادوا على غير عادتهم ليلاً وهم يبكون، وكأنهم في غمّ وبلاء، ويظهرون الحزن والاغتمام والبكاء ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ﴾ (يوسف: ١٦) أي: وجاءوا أباهم بعدما أقبل الليل بظلامه، وهم يتباكون ويتظاهرون بالحزن والأسى، وقد قيل في المثل: " دموع الفاجر بيديه"!

قال بعض السلف: " لا يغرنَّك بكاء المتظلم فربّ ظالم وهو باكٍ، وذكر بكاء إخوة يوسف وقد جاءوا عشاء يبكون، تأخروا

لوقت العشاء، حتى يتم غدرهم بأخيهم، وادّعى لحبك قصّتهم المكذوبة أمام أبيهم." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

ومن لطيف ما روي في ذلك: ما قاله الجاحظ في كتاب الحيوان: " يُحكى أنّ شيخاً نصب للعصافير فخًّا، فكلما وقع عصفور قبض عليه، ودقَّ جناحيه، وألقاه في وعائه، دمعت عينيه ممّا يصكّ وجهه من برد الشمال، فتشاورت العصافير في أمره، وقُلْنَ: لا بأس عليكُنَّ، فإنه شيخٌ صالحٌ رحيمُ، رقيق الدمعة!

فقال عصفور منهم: لا تنظروا إلى دموع عينيه، ولكن انظروا إلى عمل يديه!" (الجاحظ)

لطيفة: لِمَ لَمْ يقل تعالى: (وجاءوا أباهم عشاء باكين أو متباكين)؟

وذلك لأنّ جملة (يبكون) أوحت بأنّ البكاء كان منهم كثيرًا ومتجددًا؛ ولتقويّة التمويه والخداع.

قال الزركشي: " إذا المراد أن يريد صورة ما هم عليه وقت المجيء، وأنهم آخذون في البكاء، يجددونه شيئًا بعد شيء، وهذا هو سرُّ الإعراض عن اسم الفاعل والمفعول إلى صريح الفعل والمصدر." (خالد السبت: ١٤٢١)

نعود – والعود أحمد – إلى أبناء يعقوب، فبعد أن كذبوا كذبتهم الباهتة، وزرفوا على فَقْدِ يوسف دمعتهم الكاذبة، راحوا

يعتذرون بالعُذر البارد الكاذب، فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ﴾ (يوسف: ١٧) أي: إنهم قالوا: يا أبانا إننا أخذنا نلهو ونلعب، وقد تركنا يوسف عند متاعنا توفيراً له وراحة، فلمّا بعدنا عن يوسف كثيراً، انتهز الذئب وجوده وحيداً، فهجم عليه وأكله دون أن يبقي منه شيئًا.

◎ كاد المريب أن يقول خذوني:

الكاذب يعرف بسمته، وفي لحن قوله، وكما في المثل: كاد المريب أن يقول خذوني، وهذا ما حدث مع إخوة يوسف، حيث جرت ألسنتهم لأبيهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ (يوسف: ١٧) أي: وما أنت بمصدق لنا في الذي أخبرناك به من أكل الذئب له، ولو كنا غير متهمين عندك، فكيف وأنت تتهمنا في هذا؟ فإنك خشيت أن يأكله الذئب، وضمنا لك ألّا يأكله لكثرتنا حوله، فصرنا غير مصدقين عندك، فمعذور أنت في عدم تصديقك لنا، والحالة هذه.

قال السعدي: " (قالوا:) والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف والرقّة الشديدة له، ولكن عدم تصديقك إيانا، لا يمنعنا أن نعتذر لك بالعذر الحقيقي، وكل هذا قالوه تأكيداً لعذرهم." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

◎ دم كذب:

وحتى يَحْبِكوا خُدعتهم أكثر وأكثر ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ (يوسف: ١٨) أي: لطخوا قميص يوسف بدمٍ مفتعلٍ مكذوبٍ، مدعين أنَّ هذا القميص الملطخ بالدم شاهد على صدقهم.

يا للعجب! إنّ الذئب لبرئ من دم ابن يعقوب، فهذا ظلم وافتراء من أقرب الأقرباء، وستكشف عنه قريب الأيام في وضوح وجلاء!!

زيادة وتفصيل:

١. **من أين جاء أبناء يعقوب بهذا الدم؟**

يُذكر أنهم عمدوا إلى شاة فذبحوها ولطخوا قميص يوسف بدمها، ويقال إنه دم حشرات، والذي يظهر أن ذلك كله مصدره الإسرائيليّات، على كل حال لم يعجز إخوة يوسف عن الإتيان بهذا الدم المكذوب.

٢. **وُصِفَ الدم بالمصدر (دم كَذِب)، مع أنَّ الدم لا يوصف بالمصدر، وإنما يوصف بـ (دم مكذوب فيه، أو دم ذي كذب)، فما السرُّ في ذلك؟**

جيء بالمصدر على طريق المبالغة كأنه نفس الكذب وعينه، كما يقال للكذّاب: هو الكذب بعينه.

٣. من أين ابتكر أبناء يعقوب هذه الكذبة؟

يبدو أنّ اعتذار أبيهم لهم والذي قال فيه: أخشى أن تنشغلوا في لعبكم وما أنتم فيه، فيأتي الذئب فيأكله، هو الذي أوحى إليهم بكذبتهم هذه، أو لأنّ الأرض التي هي وجهتهم كانت كثير الذئاب، والله أعلم.

◎ يعقوب يكشف كذب أبنائه:

يعقوب – عليه السلام – لم تنطلِ عليه هذه الكذبة القبيحة، فيذكر أنّ يعقوب قال لهم: كذبتم لو أكله الذئب لخرق القميص، وقال أيضاً: ما أحلم هذا الذئب! أكل ابني ولم يشقّ قميصه!

والذي يظهر أنّ هذا القول السابق من يعقوب مأخوذ من الإسرائيليّات، على كل حال لم يرج هذا الصنيع الكاذب على يعقوب، فقال لهم مُعْرِضاً عن كلامهم إلى ما وقع في نفسه من لبسهم عليه: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ١٨) أي: زيّنت لكم أنفسكم أمراً عظيماً في يوسف بادّعائكم بأن ذئبًا مفترسًا أكله، فأمري على ما تقولون هو الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه، وربّي هو عوني وملجأي على ما تصفونه من هذا الكذب البواح.

تساؤل: ظهر ليعقوب كذب أبنائه، فلِمَ لمْ يبالغ في التفتيش والبحث عن يوسف؟

ذُكر: أنّ يعقوب ترك البحث والتفتيش تقديراً من الله؛ لزيادة المحنة والابتلاء عليه؛ ولينفذ قدر الله.

ويحتمل: أنه خشى أنّ أولاده الأقوياء إذا شعروا بأنّ أباهم يبحث عنه، ربّما زادوا الضرر على يوسف إذا كان حيًّا، فآثر يعقوب الصبر والسكوت. والله أعلم.

◎ نجاة يوسف من غيابة الجبّ:

تُرِك يوسف في البئر وحيداً إلّا من رعاية الله وحفظه، فهيّئ سبحانه أسباباً لنجاته، بأنّ جاءت قافلة تجارة حاملة بضاعة لمصر تمرّ قريباً من البئر ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ (يوسف:١٩) أي: قافلة مسافرة، فأناخت إبلها لتسريح ولتسقي من البئر، ﴿فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ﴾ (يوسف: ١٩) أي: وأرسلوا واردهم ليأتي لهم بالماء، والوارد: هو الشخص الذي يرد الماء ليجيء للقوم به ﴿فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ (يوسف: ١٩) أي: فلمّا أدلى هذا الرجل الدلو في البئر تعلق به يوسف، وما أن سحب الرجل دلوَهُ إذ به يبصر غلامًا جميلاً، فلمّا رآه هذا الرجل (وارد القوم) استبشر، وقال: ﴿يَٰبُشْرَىٰ

﴿هَٰذَا غُلَٰمٌۚ﴾ (يوسف: ١٩) أي: يا بشرتي اقبلي فهذا أوان إقبالك، وأوقع النداء على البشرى؛ للتعبير عن ابتهاجه وفرحه بهذا الغلام، ثم ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ (يوسف: ١٩) أي: أخفاه في أمتعته، وجعله بضاعة من جملة بضاعتهم.

وهكذا بيعَ يوسف البيع الأوّل.

قال تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ (يوسف: ٢٠) أي: بيع يوسف بثمن بخس قليل بالنسبة لثمن العبيد في زمانه.

مَنِ الذي باع يوسف هذا البيع الأوّل البخس؟

اختلف المفسرون في من الذي باع يوسف البيع الأوّل البخس؟ على قولين:

القول الأوّل:

الذي باع يوسف البيع الأوّل البخس القافلة، حيث قال بعض المفسرين: بعدما أخفت القافلة يوسف في رحالهم كبضاعة من جملة بضاعته، واصلت القافلة رحلتها صوب مصر، ولمّا وصلت القافلة مصر، باعوه فيها بثمن بخس قليل دون قيمته؛ لخوفهم أن يدركه أهله، ويعرفوه بينهم، وينتزعوه منهم.

القول الثاني:

الذي باع يوسف البيع الأوّل البخس إخوة يوسف، حيث قال بعض المفسرين: إنّ إخوة يوسف مكثوا عند البئر، ولمّا استشعروا بأخذ القافلة له لحقوهم، وقالوا هذا غلامنا أبق منا، فاشترى أصحاب القافلة يوسف منهم بثمن بخس قليل نزر.

والقول الثاني هو الراجح، قال ابن كثير: " لأنّ قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ إنما أراد إخوته لا أولئك السيارة؛ لأنّ السيارة استبشروا به وأسروه بضاعة، ولو كانوا فيه من الزاهدين لما اشتروه." (ابن كثير: ١٩٨٧)

ولِمَ لَمْ يبع أبناء يعقوب أخاهم يوسف بثمن العبيد في ذلك الوقت؟

قال السعدي: " لأنّه لم يكن لهم قصد إلّا تغيبه، وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

الحاصل: بيعَ يوسف عند البئر البيع الأوّل البخس.

◎ يوسف في بيت العزيز:

لمّا وصلت القافلة ديار مصر باعوا يوسف فيها، فكان هذا البيع الثاني بعدما بيعَ البيع الأوّل عند البئر، فجاءت المحنة الثانية، ألا هي محنة الاسترقاق والخدمة.

وكان الذي اشتراه في مصر هو عزيزُها (أي: رئيس الشرطة فيها)، وبعد أن اشتراه العزيز ذهب به إلى بيته، وقال لزَوْجه: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ (يوسف: ٢١) أي: أحسني إليه ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ (يوسف: ٢١)

قال ابن مسعود: " أفرس الناس ثلاثة: عزيز مصر حين قال لامرأته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ (يوسف: ٢١)، والمرأة التي قالت لأبيها عن موسى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، وأبو بكر الصدّيق حين استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنهما." (ابن كثير: ٢٠٠٢)

قال القرطبي: " قال ابن العربي: عجباً للمفسرين على اتّفاقهم على جلب هذا الخبر! والفِراسة هي علم غريب ...، وليس كذلك فيما نقلوه؛ لأنّ الصدّيق إنما ولّى عمر بالتجربّة في الأعمال، والمواظبة على الصحبة وطولها، والاطلاع على ما شاهد منه من العلم (والخبرة)، وليس ذلك من طريق الفراسة، وأمّا بنت شعيب فكانت معها العلامة البيّنة ...، وأمّا أمر العزيز فيمكن أن يُجعل فراسة؛ لأنه لم يكن معه علامة ظاهرة، والله أعلم."

(القرطبي: ٢٠٠٢)

تساؤلان:

1. **هل كان العزيز عقيماً؟**

ذُكر: أنّ " الآية توحي بأنّ العزيز لم يرزق ولداً حين اشترى يوسف عليه السلام، وربّما كان يغلب على ظنّه ألّا يرزق بهم؛ لهذا قال ﴿أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ فرحاً أن يكون يوسف عليه السلام، الولد الصالح الذي ينفعهم عند الكبر."

(عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

وهذا القول غير صحيح، فالآية لا تدلُّ على إذا العزيز كان عقيماً أو لا، **والصواب في تفسير الآية أن يقال:** إنّ العزيز لمّا قال لامرأته احسني إليه، يقصد: أنه لا يخلو أن يكون يوسف: إمّا بمنزلة الخدم، الذين يسعون في نفعنا بخدمتنا، أو نرقيه منزلة أعلى من ذلك، ونجعله ولداً، فنكرمه ونجله.

2. **ما اسم امرأة العزيز؟**

المشهور في كتب التفسير أنّ اسمها (زُليخا أو راعيل)، وهذا يبدو أنه مأخوذٌ من الإسرائيليّات إذ لا يوجد نصٌّ صحيح يقطع باسمها، والله اعلم.

◎ التمكين الأوّل ليوسف في مصر:

أقام يوسف في بيت عزيز مصر عبداً خادماً، ولكنه أظهر فيه نباهة وصلاحاً ونبوغاً، فالذي تولّى تربيتَهُ اللهُ العزيز الحكيم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٢٢) أي: ولمّا بلغ يوسف منتهى قوّته وشدّته أعطيناه فقهاً في الدين وحكماً فيه، وهذا جزاء المحسنين.

ومتى بلغ يوسف أشدّه؟

قال ابن كثير: " وقد اختلف في مقدار المدّة التي بلغ فيها أشدّه، فقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: ثلاث وثلاثون سنة، وعن ابن عباس: بضع وثلاثون، وقال الضحّاك: عشرون سنة، وقال الحسن: أربعون سنة، وقيل غير ذلك، والله أعلم."

(ابن كثير: ١٩٨٧)

الحاصل: إن هذا النبوغ والصلاح قد جعلا يوسف أثيراً لدى العزيز، فولَّهُ العزيزُ التصرفَ في شؤون بيته وأعماله، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (يوسف: ٢١) أي: وكما هيّأنا العزيز وامرأته يحسنان إليه، مكنا له في أرض مصر ﴿وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ﴾ (يوسف: ٢١) أي: تفسير المنامات والرؤى والأحلام ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ (يوسف:

٢١) أي: إذا أراد الله تعالى أمراً هيّأ له أسباباً ليس في مقدور الناس تهيئتها.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١) أي: أكثر الناس لا يطّلعون على غيبه[١].

والتعبير بـ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ احتراس لإنصاف القلّة من الناس الذين يتفضل الله تعالى عليهم من فضله، ما يجعلهم لا يندرجون تحت الكثرة الكثيرة التي لا تعلم، فالله تعالى يعطيهم من فضله ما يجعلهم يعلمون ما يجهله غيرهم.

وهكذا بوجود يوسف في بيت العزيز متصرفاً فيه وكمدير أعماله، تحقّق ليوسف التمكين الأوّل في مصر.

◎ محنة يوسف مع امرأة العزيز:

اكتمل يوسف في بيت العزيز شاباً وبهاءً وجمالاً، كما جاء في حَديث الإسراء: " **ففُتِحَ لنا، فإذا أنا بيوسفَ، وإذا هو قد أُعْطِيَ شَطْرَ الحُسنِ فرحّبَ بي ودعا لي بخيرٍ.**"

(رواه مسلم: (١٦٢)، وأحمد: (١٢٥٧))

---

(١) وذُكر: المراد بالأكثر (هنا) الجميع؛ لأنَّ لا أحد يعلم الغيب.

وفي رواية: " **أُعْطِيَ يوسفُ وأمُّهُ شطرَ الحسن.**" (رواه الحاكم: (٤٠٨٢)، وصحّحه الألباني في صحيح الجامع: (١٠٦٣))

قال ابن كثير: " فيوسف قد أُعطي نصف حسن آدم، وآدم خُلق بيد الله، ونفخ فيه من روحه، فكان في غاية الحسن البشري، ولهذا يدخل أهل الجنّة على طول آدم وحسنه، ويوسف كان على النصف من حسن آدم، ولم يكن بينهما أحسن منهما."

(ابن كثير: ٢٠٠٢)

ومع هذا الجمال الفائق حاز يوسف عقلاً بديعاً، ومنطقاً بليغاً!

هذا الجمال الفائق، والعقل البارع، والمنطق البليغ، جعل امرأة العزيز تولع به، وكان هذا ممّا قدّره الله تعالى، وقد وصل شغفها بيوسف لدرجة أنها لم تملك نفسها حتى صارحته بعشقها له، بل دعته لنفسها وهيّأت الأمر.

قال تعالى: ﴿وَرَاوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ (يوسف: ٢٣) قال الصابوني: " هذه المحنة الثالثة بعد محنة الجبّ والاسترقاق، والمراودة الطلب برفق ولين، كما يفعل المخادع بكلامه المعسول، والمعنى: طلبت امرأة العزيز الذي كان يوسف في بيتها منه أن (يفعل الفحشاء)." (محمّد الصابوني)

وتأمّل الآيات القرآنية وهي تتحدث بهمس خافت، وحياء واصب عمّا وقع من امرأة العزيز، تاركة لأولي الألباب والأفهام اكتشاف الحكمة والمغزى والأحكام.

فلَمْ تصرحِ الآيةُ باسمها! فلم تقل الآية: (وراودته امرأة العزيز عن نفسه)، قال ابن الناظم: " والعدول عن التصريح باسمها للمحافظة على الستر ما أمكن أو للاستهجان بذكره وإيراده."

(ابن الناظم: ٢٠٠١)

وهذا هو ديدن القرآن وأسلوبه في التحدث عن مثل هذه المسائل إضفاء الستر والحياء، قال مراد: " فيا ليت وسائل الإعلام في عصرنا تتقي الله تعالى، ولا تلعب على وتر الجنس، كفاهم ما أفسدوا، فهم السبب الرئيسي في فساد شباب المسلمين."

(مصطفى مراد: ١٩٩٩)

على كل حال: راودت امرأة العزيز يوسف عن نفسه، وهذه المراودة لم تكن مرّة أو مرّتين، بل كانت مرّات ومرّات، ونفهم ذلك من قول عاذلات امرأة العزيز: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾ (يوسف: ٣٠)، قال ابن حبان: " عبرن بـ (تراود) للدلالة على أن ذلك صار سجية لها فهي دائماً تخادعه

عن نفسه؛ لأنّ المضارع يفيد التجديد والاستمرار." (محمّد الصابوني)

وممّا زاد المراودة صعوبة أن هذه المراودة العنيفة العديدة حدثت وهما يسكنان في بيت واحد، ممّا يجعل وقوع ذلك الأمر الفاحش سهل ويسير، ومن دون إثارة شكوك أحد أو انتباهه.

وفي مرّة من مرّات مراودة امرأة العزيز ليوسف إذ في لحظة شيطانيّة هاج هائج الفحش والخيانة في قلبها، فأحكمت خطتها الماكرة بتغليق الأبواب المحكمة، للزيادة في الاحتياط والاستبقاء، فصار المكان خالياً وآمناً من دخول أحد عليهما، قال تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ (يوسف: ٢٣) أي: أحكمت إغلاق الأبواب عليها وعلى يوسف، يقول مراد: " وفي إغلاقها الأبواب دليل على أنها مصمّمة على الفاحشة سواء قَبِلَ عبدها أو رفض."

(مصطفى مراد: ١٩٩٩)

ثم هيئت المكان وزينته، وأخيراً – وبعد كل هذه المغريات السابقة – صرحت بفجور وسفور: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾[١] (يوسف: ٢٣) أي: هلمَّ إليّ وأسرع.

---

(١) **فائدة لغوية:** هيت: اسم للفعل، وهو لازم لا يتعدى إلى مفعول، وفيه ثلاث لغات: هيتَ بالفتح، وهيتُ بالضم، وهيتِ بالكسر، قال الدرويش: " =

" فبينت الآية في أتمّ بيان أنّ امرأة العزيز نزلت من عليائها لتسلم قيادتها إلى عبدها، وأنّ هذا العبد كان مُكرهاً مُرغماً لم يطلب الفاحشة، ولم يومئ إلى مقدماتها، ولك أن تنظر إلى نفسيته في هذا الابتلاء، فإنه لو أطاعها لصار سيداً وأميراً، ولو عصاها لصار عبداً حقيراً." (مصطفى مراد: ١٩٩٩)

ومع ذلك اختار يوسف عصيانها، بل صرخ فيها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٢٣) أي: أعوذ بالله من فعل السوء.

قال أبو السعود: " وهذا إشارة إلى أنّ منكرها هائلٌ يجب أن يعاذ بالله للخلاص." (محمّد الصابوني)

ولله درُّك يا يوسف عفيفاً طاهراً! تقول هذا وأنت في ريعان شبابك وعنفوانك، تقول هذا وأنت عبد غريب لا يحتشم مثلك احتشام إذا كان حرًّا في وطنه وبين معارفه، تقول هذا وأنت أسير عندها وتحت يديها، وهي سيدة جميلة وذات منصب ودلال!

ولم يكتف يوسف بهذا القول التقي النقي، بل وبخها قائلاً: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ (يوسف: ٢٣) أي: زوجك هو سيدي الذي أحسن إليّ، وهذا من باب من لا يشكر الناس لا يشكر الله،

= وقيل: هيت اسم فعل ماض، بمعنى تهيأت، وفي القاموس: وهيت لك مثلثة الآخر، وقد يكسر أوله، أي: هلمَّ." (محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

ثم ختم كلامه معها بتوضيح شؤم المعصية، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (يوسف: ٢٣) أي: لا يفلح الظالمون ومنهم الخائنون.

وتأمّل – وفك الله للحقّ –: جواب يوسف السابق تجد فيه الترتيب الحسن البليغ، حيث بدأه بقوله: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ وذلك لأنّ الانقياد لأمر الله تعالى أهمّ الاشياء؛ لكثرة إنعام الله تعالى ولطافه في حقّ عباده.

ثم تلاه بحقوق الخلق؛ لِما في رعاية حقوق الخلق فرض لازم، فأشار إلى زَوْجها الذي هو قد أنعم في حقّه، حيث تقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة إليه، فقال: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾!

ثم ختم كلامه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ حيث إنّ صون النفس عن هذا الضرر ضرورة حتمية، فهذه اللذة لذّة قليلة، يتبعها خزي في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة، واللذّة القليلة إذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضي تركها، والاحتراز عنها.

وتأمّل أيضًا: كيف قابل القرآن دواعي الغواية الثلاث التي جاهرت بها امرأة العزيز المتمثلة في: المراودة، وتغليق الأبواب، وقولها (هيت لك)، بدواعي العفاف الثلاث التي ردَّ بها يوسف

عليها المتمثلة بقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ (يوسف: ٢٣)

هكذا أَسْمَعَ يوسف امرأة العزيز هذا الكلام الطاهر النظيف المقنع، ولكن – يا للأسف – لم يردع هذا الكلام هائج الفحش في قلب امرأة العزيز، عندها أَتْبَعَ يوسف القول العمل ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ﴾ (يوسف: ٢٥) أي: لمّا لم يردعها هذا الكلام النظيف أخذ يوسف يسرع في إفلات نفسه من يديها، وكانت تمسك بثوبه من خلف فتمزق الثوب طولًا من الخلف، وفي تصرّف يوسف السابق تعليمٌ لنا أنه ما من مكان يشعر فيه الإنسان بفتنة قويّة أو وجود أسباب مشجعة للمعصية ظاهرة بيّنة فعليه أن يفرّ منه، ويهرب غاية ما يمكنه الهروب، فلا يمكن التخلص من الفتن إلّا بترك مكانها ومفارقة محلّها.

أفلت يوسف نفسه من يديها، ولكنها اِسْتَمَرّتْ تلاحقه، وعندما كانا يستبقان الباب، هو يريد فتحه هرباً، وهي تحول بينه وبين الباب طلباً، في هذه اللحظة الحرجة وصل زَوْجها المخدوع،

فوجدها في هذه الحالة المريبة ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾[1] (يوسف: ٢٥)

قال الصابوني: " وهنا يبدأ الكيد الخبيث، والمكر المدبّر، فتنطلق صارخة باكية؛ لتظهر أمام زَوْجها بالبراءة، زاعمة أن يوسف راودها عن نفسها، فامتنعت منه ....، وفي لمحة عين يصبح الطالب مطلوباً، والظالم مظلوماً، وتصبح العقوبة واجبة لمن أراد أن يخون شرف سيده، ويهتك عرضه (وحقًّا كما يقول المثل: رمتني بدائها وانسلت)." (محمّد الصابوني)

﴿قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢٥﴾ (يوسف: ٢٥)

زيادة وتفصيل:

١. لِمَ أشارت امرأة العزيز بعقوبة السجن دون غيرها؟

قيل: أشارت بالعقاب المأمون وهو السجن؛ لأنَّها خشت على حبيبها وأرادت أن تبقيه حيًّا.

---

(١) لم يقل التعبير القرآني: (وألفيا سيده لدى الباب)، حيث لم يكن مُلك العزيز ليوسف مُلكًا حقيقيًّا، حيث لم يكن يوسف في الحقيقة كالعبيد الذين يباعون ويشترون، بل هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وأمّا بيعه كان لحكمة من الله تعالى.

وهذا الكلام غير صحيح **إنما الصواب:** أشارت بالعقاب المأمون (السجن) لعلمها من نقاء يوسف وطهره وبراءته.

٢. **لِمَ قالت امرأة العزيز: ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ ولَمْ تقل: (من فعل بأهلك سوءًا)؟**

وذلك حتى تبرئ نفسها ونفسه من هذا الفعل الشنيع.

٣. **لِمَ حكت امرأة العزيز عن نفسها بعنوان أهلية العزيز ﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾؟**

لتهويل الأمر وإعظامًا للخطب، ومبالغة في التخويف.

٤. **ما الذي عصم يوسف من الاستجابة لامرأة العزيز رغم كل المغريات السابقة؟**

الذي عصم يوسف من الاستجابة لامرأة العزيز رغم كلّ هذه المغريات السابقة أسباب عدّة هيّئها الله تعالى، منها:

أ. صلاح أسلاف يوسف من آبائه الأنبياء، فصلاح الآباء يحفظ الأبناء، وقد قال صلى الله عليه وسلم: " **الصلاحُ من اللهِ، والأدبُ من الآباء.**"

(رواه البخاري في الأدب المفرد: (٩٢))

ب. كان قلب يوسف ممتلئاً بحبّ الله، فحمى هذا الحبُّ الإلهيُّ قلب يوسف أن يتعلق بغير الله، قال ابن القيم: " فإنّ القلب لا بدّ له من التعلق بمحبوب، فمن لم يكن الله

وحده محبوبه وإلهه ومعبوده، فلا بدّ أن ينعقد قلبه لغيره." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

ج. يوسف كان مُخْلَصًا لله، قال ابن القيم: " فامرأة العزيز لمّا كانت مشركة وقعت فيما وقعت فيه، مع كونها ذات زوج، ويوسف – عليه السلام – لمّا كان مخلصاً لله تعالى نجا مع كونه شاباً عزباً مملوكاً."

(ابن القيم: ٢٠٠٢)

٥. لِمَ عبّر القرآن عن الزوج بلفظ (السيد)؟

ذكر: أن عادة القوم في هذا الزمن أن يقال عن الزوج السيد، فعبّر القرآن بذلك حكاية لدقائق ما كان متبعًا في التاريخ القديم.

لطيفة بيانية:

قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ ﴾ (يوسف: ٢٥) فقد جاء الباب في الآية مفرداً، أمّا في قوله: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ (يوسف: ٢٣) فقد جاء الباب في هذه الآية مجموعاً في كلمة (الأبواب)، **فما السرّ في ذلك؟!**

الجواب: جاء (الباب) مفرداً في الموضع الأوّل؛ لأنه جاء في معرض ذكر هروبه منها، والهروب لا يكون إلّا من باب واحد حتى ولو تعددت أمامه، فلن يقصد منها إلّا الأوّل؛ لذا جاء مفرداً.

أمّا الموضع الثاني فقد جاء مجموعاً (الأبواب)؛ لأنّ هدف امرأة العزيز كان الاحتياط التامّ للإغلاق، ولا يتحقّق ذلك ولا يتمّ إلّا بإغلاق الجميع؛ لذا جاء مجموعاً.

◎ هي راودتني عن نفسي:

تسمّر يوسف مندهشاً بعدما سمع هذا الكذب العجيب في قلب الحقائق، ولم يجد أي دفاع عن نفسه سوى براءته ونقائه، فقال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ (يوسف: ٢٦) أي: قال يوسف مدافعاً عن نفسه، وتكذيباً لها: هي التي بالغت في ترغيبي وإغرائي لارتكاب الفاحشة، ولست أنا الذي أرادها بسوء.

وبالرغم من أنّ هذا الموقف قد اِسْتَمَرَّ للحظات معدودة إلّا أنّ يوسف قد أحسَّه ساعات طويلة، فليس هناك أشدّ على الطاهر البريء من اتّهامه بما هو منه براء لا سيما إن كانت التهمة الخيانة والفحشاء.

◎ وشهد شاهد من أهلها:

ورحمة من الله جاء الفرج ليوسف بشهادة الشاهد: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ (يوسف: ٢٦) أي: شهدَ شاهد على صِدْق

يوسف في الذي قاله: ﴿هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ﴾ كما وشهدَ على كِذْب امرأة العزيز في الذي ادّعته: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

مَنْ كان هذا الشاهد؟

اختلف المفسرون في هذا الشاهد على أربعة أقوال:

القول الأوّل: كان الشاهد طفلاً قد تكلم في المهد ونطق بهذه الشهادة، قال القرطبي: " وهذا لا يوجد فيه مستند، وما ورد من أحاديث صحيحة ليس فيها أنّ من الذين تكلموا في المهد شاهد يوسف، لا سيما إذا كان الشاهد هو الصبي لكانت شهادته ليوسف تغني عن أن يأتي بدليل من العادة؛ لأنّ كلام الطفل آية ومعجزة، فكانت أوضح من الاستدلال بالعادة." (القرطبي: ٢٠٠٢)

القول الثاني: أنّ الشاهد هو قدُّ القميص، قال القرطبي: " وهو مجاز صحيح من جهة اللغة، فإنّ لسان الحال أبلغ من لسان المقال، وقد تضيف العرب الكلام إلى الجمادات، وتخبر عنها بما هي عليه من الصفات...، إلّا إن قول الله تعالى بعد ﴿مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ يبطل أن يكون القميص." (القرطبي: ٢٠٠٢)

القول الثالث: أنه خَلْقٌ من خلق الله تعالى ليس بإنسيّ ولا بجنيّ، قال القرطبي: " وهذا يرده قوله تعالى: ﴿مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾" (القرطبي: ٢٠٠٢)

القول الرابع: أنه كان رجلًا حكيمًا صاحب عقل، كان العزيز يستشيره في أموره، وكان من جملة أهل امرأته، وكان مع زَوْجها، وشهد الحادثة.

وأرجح الأقوال القول الرابع، والله أعلم.

وكانت شهادة هذا الرجل كما يأتي:

﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧﴾ (يوسف: ٢٦ – ٢٧) أي: " إذا كان يوسف هو الطالب وهي الممتنعة فلا بدَّ أن يُشقّ ثوبه من أمام؛ لأنه يريدها وهي تدفعه عن نفسها، فالمنطق السوي أن يكون الشقّ من الأمام، وإذا كان يوسف هو الهارب وهي الطالبة فلا بدَّ أن شَقّ ثوبه من خلف." (محمّد الصابوني)

◎ العزيز يحاول كتم الواقعة:

بانَ للعزيز صِدْقَ يوسف، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ﴾ (يوسف: ٢٨) أي: لمّا تحقّق العزيز من صدق يوسف، قال لامرأته: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ (يوسف: ٢٨) أي: هذا البهت والكذب الذي لطختِ به عرض يوسف البريء هو من جملة كيدكُنَّ، ثم وصف العزيز كيد امرأته بأنه عظيم ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (يوسف: ٢٨) **وقد صفه الله تعالى بأنه عظيم:** " لأنه لا أعظم كيداً من كيدها الذي برأت به نفسها ممّا أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

لِمَ كرّر العزيز (كيدكن) مرّتين؟

كرّر العزيز (كيدكن) مرّتين؛ لبيان شدّته وخطره، وأنه أكثر ما يميّز النساء.

إشكال: وصف الله كيد النساء بأنه عظيم في قوله: ﴿إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ﴾ بينما وصف الله خلق الإنسان عامّة بالضعف، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ (النساء: ٢٨)، فهل هناك تعارض بين الآيتين؟

الجواب: لا تعارض إن شاء الله؛ لأنّ الله عندما وصف خَلْقَ الإنسان بأنه ضعيف، وصفه بالضعف مقابل خلق الملائكة والكون، وعندما أخبر عن كيد النساء أخبر أنّ كيدهن عظيم بالنسبة إلى كيد البشر.

نعود – والعود أحمد – إلى العزيز وكيفية تعامله مع هذا الحدث الشائك؟! فبعد أن خاطب امرأته مُقرّعاً، توجه بالخطاب إلى يوسف متلطفاً: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ﴾ (يوسف: ٢٩) أي: يا يوسف اكتم هذا الأمر ولا تذكره لأحد.

قال سيد قطب: " وهنا تبدو صورة من الطبقة الراقية في المجتمع الجاهلي، رخاوةٌ في مواجهة الفضائح الجنسيّة، وميل إلى كتمانها عن المجتمع، فيلتفت العزيز إلى يوسف، ويأمره بكتم الأمر وعدم إظهاره لأحد، ثم يخاطب زَوْجه الخائن بأسلوب اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ (يوسف: ٢٩) أي: توبي واطلبي المغفرة من هذا الذنب

القبيح، وكان هذا هو المهم محافظة على الظواهر." (محمّد الصابوني)

ثم عاد العزيز لزَوْجه قائلاً: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ (يوسف: ٢٩) أي: من الخاطئين المتعمدين للذنب، " ولم يقل من الخاطئات؛ لأنه قصد الإخبار عن المذكر والمؤنث، فغلّب المذكر." (القرطبي: ٢٠٠٢)

تساؤل: لِمَ أراد العزيز كتمان هذه الواقعة؟

قال ابن كثير: " لأنه عذرها لأنَّها رأت ما لا صبر لها عنه." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وقيل: لأنّ العزيز كان رجلاً قليل الغيرة.

وهذه أقوال مظنونة وغير محققة والصواب: كتمها لأنّ مثل هذه الواقعة قد تضرُّ بمنصبه، ويحتمل كتمها لأنّ في مثل هذه الأمور الأليق والأحسن كتمانها؛ لذا أمرها بالتوبة فإنَّ العبد إذا تاب إلى الله تاب الله عليه، والله أعلم بالصواب.

○ شيوع الخبر في المدينة:

حاول العزيز كتمان الخبر بكل ما أوتي من سلطة ونفوذ، إلّا أنّ الخبر شاع وانتشر، وذاع وانتثر، فالمتربصون بأهل القصور كُثر، كلهم يسعى للنيل من الآخر، وأن يعدد عليه معايبه وخطاياه؛ لذا سرى هذا الخبر كالنار في الهشيم بين أصاب

القصور لا سيما نساء كبار القوم، فلاكته أفواههن لوماً على زوجة العزيز وتقريعاً لها، فليس هناك أعرف من نفسية المرأة من امرأة مثلها، فكعادة النساء كثر اللغط بينهن في المدينة عن سوء سيرة امرأة العزيز، فامرأة مثل امرأة العزيز لم تستطع نسوة الطبقة الراقية من أن يكتمن خبرها.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ﴾ (يوسف: ٣٠) أي: قلن في جلساتهن الخاصّة: عجباً من امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه!

وقلن: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾ (يوسف: ٣٠) أي: بلغ حبُّه شغاف قلبها، وهذا تعبيرٌ يدلُّ على شدّة غرامها به، وعِبْنَ عليها حبّها لعبدها، وأنها بهذا الحبّ تكون قد انحرفت عن الطريق المستقيم ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف: ٣٠)

تساؤلان:

١. **هل كان لوم صديقات امرأة العزيز نابعًا من فضيلة وطهر؟**

الجواب: لا، لم يكن لومهن لها نابعًا من فضيلة وطهر، بل كان لومهن لها بسبب حبّها عبداً؛ لذا لو أحبّت وزيراً – مثلاً – ما عِبْنَ عليها ذلك، والذي يظهر أنّهنَّ كُنَّ ذوات ترف يدفع صاحبه إلى التميع والتحلّل والفجور بأسماء مضللة

كالأرِسْتُقْراطيّة، والذي يظهر أنهن كُنّ يكثرن النظر إلى الشبّان الحسنان.

٢. هل كان لومهن عن نصح وخير؟

يظهر أنّ لومهن هذا لم يكن عن نصح وخير؛ لأنّ الله قد وصفه بالمكر حيث قال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ (يوسف: ٣١)، ولو كان نصحاً لقال تعالى: (فلمّا سمعت بقولهن)، وحرف الجر (الباء) في (بمكرهن) يدلّ على أن هذا الكلام لم يكن بحضورها، وإنما كان في غيابها.

◎ امرأة العزيز تكيد لعازلاتها:

دوّى هذا التجريح اللاذع في أذن امرأة العزيز، فأرادتْ أن تبيّن لصديقاتها العازلات أنّ الضعف طبيعة في بنات جنسها، فأخذت تكيد لهنَّ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ (يوسف: ٣١)

قال الصابوني: " فأرسلت إلى صديقاتها العاذلات، ذوات الثراء والجاه، فهيّأت لهن مكاناً يَجْلِسْنَ فيه(١)، وقدمت إليهن طعامًا يحتاج إلى القطع بالسكين، وكانت قد خبأت يوسف في

---

(١) ويبدو أنه كان من نمارق يستنذنَ عليها على عادة المتكبرين في الأكل.

مكان آخر، وفي تلك اللحظة أمرته أن يخرج عليهن، فبهرن بجماله، وألهاهن حسنه وتشاغَلْنَ عمّا في أيديهن فصرن يقطعن أيديهن، ولم يشعرن في تلك اللذّة الغامرة بألم جراحة الأصابع، حيث كان الدم يسيل على ثيابهن، وهن يحسبن أنهن يقطعن الفاكهة، والعقل غارق، والبصر شارد في الاستماع بجمال يوسف، والتأمّل في محاسنه." (محمّد الصابوني)

ثم لم يمنع النسوة العتب والعزل أن يعلنّ إكبارهنّ لذلك الجمال الرائع الفائق قائلات: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ (يوسف: ٣١) أي: قلن لها: " وما نرى عليك من لوم بعد هذا الذي رأينا؛ لأنهن لم يرين في البشر شبيهه ولا قريباً منه، فإنه – عليه السلام – كان قد أُعطي شطر الحسن."

(ابن كثير: ١٩٨٧)

فائدة: الأكل ينقسم من حيث الجلوس إلى أقسام ثلاثة:

القسم الاوّل: قسمٌ منهيٌّ عنه: وهو أن يأكل الإنسان متكئاً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لا آكل متكئاً**." (رواه البخاري: ٥٣٩٨)، ويقصد بالاتّكاء هنا: أن يجلس الإنسان مستنداً على يده اليمنى أو اليسرى، وسبب النهي عن هذه الجلسة في الأكل؛ لأنَّها جلسة تدلّ على الكبرياء والتغطرس، وهذا معنى نفسي، وهناك معنى حسي طبي، قال ابن العثيمين: " إذا أكل

الإنسان متكئاً تضرر، حيث يكون مجرى الطعام متمايلاً ليس مستقيماً، فلا يكون طبيعيًّا، وربّما حصل في مجاري الطعام أضرار من ذلك." (محمّد العثيمين: ٢٠٠١)

القسم الثاني: قسمٌ مندوبٌ: وهو الإقعاء، والإقعاء أن ينصب الإنسان قدمه ويجلس على عقبيه، والحكمة من استحباب هذه الجلسة أثناء الأكل، قال ابن العثيمين: " لئلا يستقر في الجلسة فيأكل أكلاً كثيراً، ولأنّ الغالب أنّ الإنسان إذا كان مقعياً لا يكون مطمئناً في الجلوس، فلا يأكل كثيراً، وهذا هو الغالب، فالإكثار من الطعام لا ينبغي، وإن كان لا بأس في بعض الأحيان أن يشبع الإنسان." (محمّد العثيمين: ٢٠٠١)

القسم الثالث: المباح، وهو جميع أنواع الجلوس الباقية.

على كل حال: نعود – والعود أحمد – إلى كيد امرأة العزيز لعازلاتها بهذه التساؤلات:

١. **ما المقصود بقوله:** ﴿وَقَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾؟

أي: يَخْدِشْنَ أيديهن بالسكين ويجرحن أصابعهن، وليس قطعاً تبين منه اليد وتنفصل.

٢. **ما غرض النسوة بتشبيه يوسف بمَلك كريم؟**

غرضهنَّ إثبات الحسن له وتهويله.

٣. من أين عرف النسوة بأن صورة المَلك تكون بهية وجميلة؟

قال الدرويش: " لأنه تعالى ركب في الطبائع أن لا شيء أحسن من المَلك ....، كما ركب في الطباع أن لا شيء أقبح من الشيطان، وكذلك في قوله في صفة جهنم: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَـٰطِينِ﴾ (الصافات: ٦٥)، فكذلك قد قرّر أن لا شيء أحسن من المَلك، فلمّا أرادت النسوة وصف يوسف بالحسن شبهنه بالمَلك." (محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

٤. ما نوع الطعام الذي قدمته امرأة العزيز لصديقاتها؟

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ فيه إيحاء بنوع الطعام المقدّم، وهو في الغالب فاكهة؛ لأنّ الطعام الذي يتناول اتّكاء، ويوضع لتجميل المجلس، ولتوفير أسباب المتعة فيه، هو الفاكهة غالباً.

٥. لِمَ استخدم النصّ القرآني كلمة (متكئاً)؟

قال الدرويش: " لأنّ استخدام كلمة (متكئاً) فيه تصوير بديع لشهوة الجوع، وتنقل الفكر إلى المطبخ بكل ما فيه من ألوان الطعام وروائحه وأسبابه."

(محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

في النهاية نجحت امرأة العزيز في أن توقع صديقاتها العازلات في شباك الإعجاب بيوسف، وعندما نجحت في ذلك

تشجعت وباحت بسرّ عشقها له بدون مواربة أو حياء، فقالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ﴾ (يوسف: ٣٢) أي: " قالت ذلك معتذرة إليهنَّ بأنَّ هذا حقيقٌ أنْ يُحبَّ لجماله وكماله."

(ابن كثير: ١٩٨٧)

قالت ذلك بلهجة المنتصرة!!

وأكملت امرأة العزيز اعترافاتها لصديقاتها: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ﴾ (يوسف: ٣٢) أي: أردت منه الفاحشة لكنه امتنع، وقد صرحت لهنَّ بذلك الآن؛ لأنَّ اللوم قد انقطع عنها من النسوة.

وتأمّل – يا رعاك الله –: وصفت امرأة العزيز امتناع يوسف بلفظ (استعصم)، قال الزمخشري: " والاستعصام بناء مبالغة يدلّ على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد." (محمّد الصابوني)

وتأمّل أيضًا: الفاء في (فاستعصم) حيث تدلُّ على سرعة امتناعه البليغ.

لله درُّك يا يوسف طاهراً عفيفاً!!

تساؤلان:

1. **لِمَ جاء في قول امرأة العزيز لفظة (ذلك) بدلاً من (هذا) في قولها ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِۖ﴾ (يوسف: ٣٢) بالرغم من أن يوسف كان حاضراً، فكان الأولى أن تقول: فهذا الذي لمتنني فيه؟**

قالت ذلك لنكتة بديعة، وهي: رفعاً لمنزلته في الحسن، وإظهاراً للعذر في الافتتان به ومثله.

2. **ما هذا المكر من النسوة اللاتي مكرن به، وسمعت به امرأة العزيز، فإنّ الله سبحانه لم يقصّه في كتابه الكريم؟**

قال ابن القيم: " قد أشار إليه بقوله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف: ٣٠)

وهذا الكلام متضمن لوجوه من المكر:

أحدهما: قولهنَّ: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾ (يوسف: ٣٠) لم يسموها باسمها، بل ذكروها بالوصف الذي ينادى عليها بقبيح فعلها، بكونها ذات بعل، فصدور الفاحشة منها أقبح من صدورها ممّن لا زوج لها.

الثاني: أن زَوْجها عزيز مصر ورئيسها وكبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

الثالث: أن الذي تراوده مملوك لا حرّ، وذلك أبلغ في القبح.

الرابع: أنه فتاها الذي هو في بيتها وتحت كنفها، فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف من طلب ذلك من الأجنبي البعيد.

الخامس: أنها هي المراودة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتى وصل حبُّها له إلى شغاف قلبها.

السابع: أنه في ضمن هذا كان أعف منها وأبر، وأوفى، حيث كانت هي المراودة الطالبة، وهو الممتنع، عفافاً وكرماً وحياءً، وهذا غاية الذمّ فيها.

الثامن: أنهن أتين بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالّة على الاستمرار والوقوع حالاً واستقبالاً، وأن هذا شأنها، ولم يقلن: راودت فتاها." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

◎ إني أخاف الله:

عاودت امرأة العزيز مراودة يوسف بمحضر من صديقاتها، وهتكت جلباب الحياء، وتوعدته بالسجن إن لم يفعل الفحشاء، ولم تخشَ لوماً ولا مقالاً، خلاف أوّل أمرها إذ كان ذلك سرًّا بينه

وبينها، وأقسمت في تبجح واستهتار: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ (يوسف: ٣٢) أي: أقسمتْ والله لئن لم يفعل ما آمره به، وأنا سيدته الآمرة الناهية، ليسجنن عقوبة له وليكونن من الأذلاء المقهورين.

اِسْتَمَعَ يوسف إلى هذا التهديد الأكيد من امرأة العزيز بالسجن والتغييب، فإذ بالمحنة تشتدّ، وبالفتنة تزداد، ويا ليت هذه الفتنة وقفت عند هذا الحدّ، وانتهت عند هذا القدر!! بل أخذت في التزايد بتزيّن نساء المدينة الأرستقراطيات ليوسف مطاوعتها، وخوفنه من مخالفتها.

فهل يضعف يوسف أمام هذه الفتن؟!

كيف يضعف يوسف؟! وهو: " الصدّيق سيد النجباء السبعة الأتقياء، المذكورين في الصحيح عن خاتم الأنبياء: " **سبعةٌ يظلُّهم اللهُ في ظلِّه، يومَ لا ظلَّ إلّا ظلُّهُ، منهم: رجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ منصبٍ وجمالٍ فقال: إنّي أخافُ الله.**"[1] (ابن كثير: ٢٠٠٢)

ففضل الكريم العفيف يوسف الصدّيق السجن على ما يدعونه إليه، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ (يوسف: ٣٣) أي: " قال: ربّ السجن آثر عندي وأحبّ إلى نفسي من

---

(١) رواه البخاري: (٦٦٠)

اقتراف الفاحشة، وأسند الفعل إليهن جميعاً؛ لأنهن جميعاً مشتركات في الدعوة بالتصريح أو التلويح." (محمّد الصابوني)

فما كان من يوسف بعدما سمع هذا الكيد إلّا الاعتراف بضعفه البشري الذي لا قدرة له على الصمود أمام هذا الإغراء، ما لم يكن معه عون من الله، فدعا قائلًا: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ (يوسف: ٣٣) أي: " إذ وكلتني إلى نفسي فليس لي من نفسي إلّا العجز والضعف، ولا أملك لنفسي نفعاً ولا ضرًّا إلّا ما شاء الله، فأنا ضعيفٌ إلّا ما قويتني وعصمتني وحفظتني وحطتني بحولك وقوّتك، وهذا كله على سبيل التضرّع والاستعانة بجناب الله تعالى كعادة الأنبياء والصالحين." (محمّد الصابوني)

تساؤل: ما المقصود بكيدهن في قوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾؟

قال الدرويش: " الكيد يطلق على معانٍ شتى، منها: المكر، والخبث، والمكيدة، والحيلة وهو المراد هنا."

(محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

إشكال: المعروف في اللغة العربية أنّ صيغة التفضيل تقتضي المشاركة بين المفضل والمفضل عليه فيما فيه التفضيل، إلّا أنّ المفضل يزيد على المفضل عليه، ومعلوم أنّ المفضل عليه في الآية السابقة هو السجن الذي لا خير فيه ألبتة، إذن صيغة التفضيل فيها إشكال.

فما الجواب عن ذلك؟

الجواب على ذلك الإشكال من وجهين:

قال السبت: " **الأوّل:** صيغة التفضيل قد تطلق في القرآن وكما في اللغة ويُراد بها مطلق الاتّصاف، لا تفضيل شيء على شيء.

الثاني: أنّ من الأساليب في اللغة العربية أنهم إذا أرادوا تخصيص شيء بالفضيلة دون غيره جاءوا بصيغة التفضيل، ويريدون بها خصوص ذلك الشيء بالفضل.

فالآية (إذن) لا تدلُّ على أفضلية السجن، بل هو ما جرت به عادة العرب في بيان فضل الشيء وخصوصيته بالفضل دون مقابلة." (خالد السبت: ١٤٢١)

تنويه: يُذكر: أنّ يوسف لو طلب من ربّه أن يصرف عنه كيد النسوة من دون أن يدخل السجن، لأجابه الله ولم يدخل السجن، ولكان وفر على نفسه هذا السجن الطويل.

وفي هذا الكلام تقليل من شأن يوسف، فيوسف نبيٌّ كريمٌ ويعلم ما يجوز الدعاء به وما لا يجوز، ويوسف عندما قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ (يوسف: ٣٣) لم يقصد طلب دخول السجن إن لم يصرف عنه كيد النساء، وإنما ذكره حسب الوجهين اللذين ذُكرا.

◎ يوسف في السجن:

انتشر في المدينة خبر مراودة امرأة العزيز لعبدها، وصار مكشوفاً ومشاعاً بين الناس، بعدما كان محصوراً بين أصحاب القصور وحسب، فلم يجد العزيز بُدًّا لستر الفضيحة عن بيته وزَوْجه إلّا بإدخال يوسف السجن؛ ليظهر يوسف بمظهر المراود، وهي الممتنعة الشريفة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ (يوسف: ٣٥) قال القرطبي: " فبرغم ما ظهر للعزيز وأهل شورته من بعد أن رأوا العلامات الدالّة على براءة يوسف من: قدّ قميصه من دبر، وشهادة الشاهد، وحزّ الأيدي، وقلّة

صبرهن عن لقاء يوسف، أن يسجنوه كتماناً للقصّة لئلا تشيع في العامّة." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وذكر السدي: " إنهم إنما سجنوه لئلا يشيع ما كان منها في حقّه، ويبرأ عرضه." (ابن كثير: ١٩٨٧)

على كل حال: قال السعدي: " وكان هذا ممّا قدّره الله، ومن جملة ما عصمه الله به، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٢)

وهكذا صار يوسف كبش فداء، ودخل السجن على غير جريمة اقترفها، وإنما للتغطية على نزوات أصحاب القصور وفضائحهم!!

◎ رؤيا صاحبي يوسف:

دخل يوسف السجن، وكان من جملة مَنْ سُجِنَ معه فتيان كانا لملك مصر الأكبر، الأوّل: ساقي الملك، والثاني: خبازه.

وربّما سُجِنا أيضاً ظلماً، وكانا ضحية من ضحايا أصحاب القصور ونزواتهم!!

وفي أثناء وجود هذين الفتيين في السجن رأى كل منهما منامًا عجيباً، حيث رأى الأوّل: بأنه يعصر خمراً في كأس الملك، والثاني: رأى أنّ فوق رأسه طبقاً فيه خبز، والطير تأكل من هذا

الخبز، ويبدو أن منامهما قد ازعجهما؛ لذا طلبا من يوسف أن يفسر منامهما.

قال تعالي: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًاۖ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾ (يوسف: ٣٦)

تساؤلان:

١. **ما المقصود بالخمر في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾؟**

ذُكر أنّ المقصود بالخمر هنا عصير العنب، وتكون كلمة (خمراً) هنا " مجازاً مرسلاً علاقته ما يكون وما يؤول إليه، فقد سمي العنب خمراً؛ لأنه يؤول إلى الخمر."

(محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

والصواب: أنّ الكلام حقيقي لا مجاز فيه، " فعن المعتمر: لقيت أعرابياً حاملاً عنباً في وعاء، فقلت: ما تحمل؟ فقال: عنباً." (محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

٢. كيف عرف صاحبا يوسف بأنّ يوسف عالم بتفسير الأحلام؟

من المحتمل جدًّا أنّ حوارات كثيرة قد دارت بينهم، وفي مرّة من مرّات حواراتهم قد لاحظ يوسف حزنهما أو قلقهما، فسألهما عن سبب ذلك، فأخبراه بمنامهما، فذكر لهما أنه يعرف تفسير الأحلام، فطلبا منه أن يفسر منامهما.

ويحتمل أيضاً أنهما قد لاحظا ما يتمتع يوسف به من علم، ودين، وخُلق، وصلاح، فشجعهما ذلك على الطلب منه تفسير منامهما.

الحاصل: أنهما في النهاية طلبا منه تفسير منامهما.

◎ يوسف يدعو إلى الله في السجن:

يوسف النبي الكريم الصدّيق ما كان أن يترك الدعوة إلى الله حتى في أحلك الظروف، فهو من كبار أنبياء بني إسرائيل، وقد أرسل إليهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ (غافر: ٣٤)

وها هو يوسفُ النبيُّ الكريمُ يدعو إلى الله وهو في السجن، حيث دعا الفتيين إلى التوحيد، وبدأ دعوته لهما بأن أعلن لهما أوّلًا

عن قدرته على الإخبار بالغيب، فقال: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَا﴾ (يوسف: ٣٧) أي: " مهما رأيتما من حلم فإني أعبره لكما قبل وقوعه فيكون كما أقول." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

قال البيضاوي: " أراد أن يدعوهما إلى التوحيد، ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألا عنه، كما هو طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد، فقدم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدلّهما على صدقه في الدعوة والتعبير."

(محمّد الصابوني)

ثم نفى ما قد يتبادر إلى ذهنهما من أن علمه مأخوذ من الكهانة أو التنجيم، فقال: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾ (يوسف: ٣٧) أي: " إنّ ذلك الإخبار بالمغيبات ليس بكهانة ولا تنجيم، وإنما هو وحي من الله." (محمّد الصابوني)

ثم قال: ﴿إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ (يوسف: ٣٧) أي: " خصني بذلك العلم لأنّني من بيت نبوة، وتركت دين قوم مشركين لا يؤمنون بالله." (محمّد الصابوني)

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى ما كان عليه العزيز وقومه من وقوع في الشرك والكفر.

وتأمّل – وفقك الله للحقّ –: لم يواجه يوسف الفتيين بأنهما كانا على دين قومهما، ولم يوبخهما بسبب كفرهما، وإنما ساق كلامه على سبيل العموم؛ ليزيد استمالتهما إليه.

لله درُّك يا يوسف نبيًّا كريمًا وداعيًا إلى الله بحكمة ورفق!

إشكال: الترك يقتضي الدخول في الشيء، فهل كان يوسف داخلًا في الكفر؟

الجواب: لا، قال الرازي: " الترك عبارة عن عدم التعرض للشيء، وليس من شرطه أن يكون قد كان خائضاً فيه."

(الفخر الرازي)

وقال السعدي: " الترك كما يكون للداخل في الشيء ثم ينفصل عنه، يكون لمن لم يدخل فيه أصلاً، فلا يقال: إنّ يوسف كان من قبل على غير ملّة إبراهيم." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

ولمّا كان يوسف تاركًا ملّة هؤلاء القوم الكافرين، اقتضى ذلك دخوله في ملّة قوم آخرين، فصرح يوسف بالملّة التي يعتنقها، فقال: ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ (يوسف: ٣٨) أي: واتّبعت دين أسلافي الأنبياء، **قال الصابوني:** " والغرض

من إظهار أنه من بيت النبوّة؛ لتقوى رغبتهما في الاستماع إليه والوثوق بكلامه." (محمّد الصابوني)

وتأمّل – وفقك الله للحق –: بدأ يوسف بذكر إبراهيم ثم إسحاق ثم يعقوب، وقد سماهم يوسف آباء جميعًا، حيث الأجداد آباء.

قال حبنكة: " وفي الآية محسنٌ بديعيٌّ وهو إطراد، أي: يذكر المتكلم آباء من يتحدث عنهم متسلسلة على وفق الترتيب الطبيعي، فبدأ يوسف بذكر جده العالي إبراهيم أوّلاً؛ لأنه الأوّل من آبائه الأقربين بين الذين حملوا الملّة التي يدعو صاحبيه في السجن لاتّباعها، فذكر بعده ابن إبراهيم المباشر إسحاق، فذكر يعقوب بن إسحاق وهو الأب المباشر ليوسف عليهم السلام."

(عبد الرحمن حبنكة: ١٩٩٦)

وقال يوسف لهما أيضاً: ﴿مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ (يوسف: ٣٨) أي: ما ينبغي لنا معاشر الأنبياء أن نشرك بالله تعالى شيئًا.

وتأمّل: قوله (من شيء) ألا تشعرك بنفي يوسف الشرك نفيًا عامًّا! حيث جاءت كلمة (شيء) نكرة في سياق النفي!

وقال: ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (يوسف: ٣٨) أي: " وذلك الإيمان والنبوّة من فضل الله علينا، وعلى الناس حيث بَعَثَ الرسل لهدايتهم وإرشادهم." (محمّد الصابوني)

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ (يوسف: ٣٨) أي: ولكن أكثر الناس لا يشكرون الله فيشركون غيره في العبادة، وفي ذلك إنصاف للقلّة الشاكرة لله تعالى.

وبعد هذه المقدّمة المقنعة الممتعة أخذ يدعوهما بألطف عبارة وأبلغ إشارة إلى الله تعالى، فبدأ خطابه لهما بلفظ الصحبة والرفقة: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾ (يوسف: ٣٩)؛ وذلك لاستمالتهما، ثم قال: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ (يوسف: ٣٩) ولا شكّ أن الجواب الذي لا يختلف فيه عاقلان: أن عبادة الواحد القهّار هي العبادة الحقّة الصحيحة، والتي توافق الفطر السليمة والعقول القويمة.

وبيّن قال: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ (يوسف: ٤٠)

قال الصابوني: " تدرج – عليه السلام – في دعوتهما، وألزمهما الحُجّة بأنّ بيّن لهما أوّلاً رجحان التوحيد على اتّخاذ الآلهة المتعددة، ثم برهن على ما يسمونها آلهة ويعبدونها من دون الله، أنها لا تستحقّ الألوهيّة والعبادة، ثم نصّ على ما هو الحقُّ القويم والدين المستقيم، وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد، وذلك من الأسلوب الحكيم من الدعوة إلى الله، حيث قدم الهداية والإرشاد، والنصيحة والموعظة." (محمّد الصابوني)

وفي تحويل يوسف الإجابة عمّا سئل عنه إلى دعوتهما إلى الله فائدة عظيمة، وهي: أنه متى سُئل العالم أو المفتي عن شيء ووجد أنّ السائل حاجته أشدّ في غير سؤاله، فإنه ينبغي على المسؤول أن يُعَلّم السائل ما يحتاج إليه قبل أن يجيبه عن سؤاله.

◎ يوسف يفسر المنامين:

ما أن انتهى يوسف من دعوتهما إلى التوحيد الخالص شرع في تفسيره مناهما، فقال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗا﴾ (يوسف: ٤١) أي: إنّ واحداً منكما سيخرج من السجن، وينجو من القتل، ويعود إلى عمله كساقٍ للملك، ويسقي ملكه عصير العنب كسابق عهده، ﴿وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦ﴾ (يوسف: ٤١) أي: وأمّا الثاني سيعدم ويصلب حتى تأكل الطير من رأسه.

ولم يعين يوسف مَنِ الناجي منهما ومَنِ المقتول، فلم يقل أنت ستنجو، وأنت ستقتل؛ وذلك تطيباً لقلب المقتول، وتحرجًا من مقابلة صاحب المصير السيّئ المشؤم، وإن كان في تعبيره إشارة إلى مصير كل منهما بطريق غير مباشر.

ثم قال: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف: ٤١) قال المفسرون: " رُوِيَ أنه لمّا أخبرهما بذلك جحدا، وقالا ما رأينا شيئًا[١]، فقال: ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف: ٤١) " (محمّد الصابوني)

وما قاله المفسرون فيه نظر، وما تفسير الآية الصحيح؟

قال ابن كثير: " أعلمهما أنّ هذا قد فُرِغَ منه، وهو واقع لامحالة؛ لأنّ الرؤيا على رِجل طائر ما لم تُعَبّر، فإذا عبرت وقعت." (ابن كثير: ١٩٨٧)

فقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم: " **الرؤيا على رِجْلِ طائرٍ ما لم يُعَبرْ، فإذا عُبِرَتْ وَقَعَتْ، قال وأحسَبُهُ قال: ولا يقُصُّها إلّا على وادٍّ، أو ذي رأيٍ.**" (رواه أبو داود: ٥٠٥٠)

---

(١) ذكر الطبري عن ابن مسعود: " أنه قال: ما رأى صاحبا يوسف شيئًا، وإنما كانا تحالماً؛ ليجربا عليه ما ذكر." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

وما ذكره الطبري – رحمه الله – ليس بصحيح، فما أخبر صاحبا يوسف به كان حلماً ولم يكن تحالماً، والله أعلم.

ثم همس يوسف في أذن الذي ظنّ (أي: تيقّن) أنه الناجي أن يخبر المَلك عنه، لعلّ المَلك ينصفه، فوعده الناجي خيراً، ولكن الإنسان في وقت الضيق يكون في حال، فإن أذهب الله شدّة هذا الوقت سارع إليه النسيان وأشغله الشيطان؛ لذا نسي الناجي أمر يوسف، ولم يخبر الملك، فلبث يوسف في السجن بضع سنين، وهذا ممّا قدره تعالى، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف: ٤٢)

زيادة وتفصيل:

١. هل طَلَبُ يوسف من الناجي أن يذكره عند الملك شكوى لغير الله أو استعانة بغير الله؟

طلب يوسف من الناجي أن يخبر الملك عن قصّته ليس فيه بأس، وليس هذا من باب الشكوى لغير الله أو الاستعانة بغير الله، وإنما هي من باب الأخذ بالأسباب، فيجوز للإنسان الإخبار بحاله لمن له قدرة على تخليصه من محنته.

قال القرطبي: " وفي هذه الآية دليل على جواز التعلق بالأسباب، وإن كان اليقين حاصلاً، فإنّ الأمور بيد مُسببها، ولكنه جعلها سلسلة وركب بعضها على بعض، فتحريكها سُنّة، والتعويل على المنتهى يقين، والذي يدلّ على جواز ذلك نسبة

ما جرى من النسيان إلى الشيطان، كما جرى لموسى في لقيا الخَضِر، وهذا بيّن فتأمّلوه." (القرطبي: ٢٠٠٢)

٢. **الشيطان لا يملك إلّا الوسوسة، أمّا النسيان فلا، فكيف أنسى الشيطانُ هذا الرجلَ الناجي أمر يوسف؟**

قال الرازي: " أنه يمكنه من حيث إنه بوسوسته يدعو إلى سائر الأعمال، واشتغالُ الإنسان بسائر الأعمال يمنعه عمل استحضار ذلك العلم." (الفخر الرازي)

٣. **كم مكث يوسف في السجن؟**

ذكرت أقوالٌ عديدةٌ، والصواب: مكث يوسف مدّة لا تقل عن ثلاث سنوات؛ لأنّ الله تعالى قال: ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ والبضع تستعمل – غالباً – فيما بين الثلاثة إلى التسعة.

وإلى هنا تكون الآيات الكريمات قد قصّت علينا بأسلوبها الشائق البليغ جزءًا مهمًا من حياة يوسف وهو في محنة السجن، فماذا كان بعد؟!

◎ رؤيا الملك:

مكث يوسف في السجن سنوات قاسيات، عانى فيها قسوة السجن ووحشته، وظُلم السجّان وسطوته، وقد صادف أنّ ملك مصر رأى في هذه الفترة منامًا عجيباً، حيث رأى سبع بقرات

سمان جميلات تخرج من النهر، وتأكل في حديقة جميلة، ثم رأى سبع بقرات هزيلات قبيحات تخرج من نفس النهر، وتأكل البقرات السبع السمان الأولى، ورأى سبع سنابل خضراء جميلات مجتمعة في ساق واحدة، وإذ بسبع سنبلات يابسات خلفها قد التوت فعدت على السنابل الخَضِراء فأكلتها، وهذا من تتمّة الرؤيا، فما رآه الملك كان منامًا واحداً، والله أعلم[1].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ (يوسف: ٤٣)

لطيفة لغوية:

هل في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ﴾ (يوسف: ٤٣) دليل على أن السنبلات اليابسة كانت سبعًا كالخَضِر؟

قال الدرويش: " دلّت كلمة (أخر) على أنّ السنبلات اليابسات كانت سبعاً كالخَضِر دون التصريح بالعدد ذلك؛ لأنّ الكلام مبني

(١) ذُكر في التوراة أن الملك رأى منامين، والصواب أنه كان منامًا واحدًا.

على انصبابه إلى هذا العدد في البقرات السمان والعجاف والسنابل الخَضِر، فوجب أن يتناول معنى الأخر السبع، ويكون قوله ﴿وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ بمعنى وسبعاً أخر." (محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

على كل حال: يبدو أن الملك قد أزعجه هذا المنام، وقد أخذ من تفكيره حيزاً كبيراً، والدليل على ذلك تعبير الملك عن المنام الذي رآه بصيغة الجمع، فقال: (رؤياي).

فجمع كبار دولته من أمراء وأشراف وكهنة، وقصّ عليهم منامه، وطلب تفسيره ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (يوسف: ٤٣)

أنصت الملأ لمنام الملك، وراحوا يمعنون التفكير فيه مرّة تلو المرّة، لكنهم في الأخير احتاروا ثم عجزوا، فقالوا معتذرين: ﴿أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ﴾ (يوسف: ٤٤) أي: هذه أحلام مختلطة، وجاءوا بلفظ الجمع (أضغاث) للمبالغة في وصف منام الملك بالبطلان؛ وتقديم العذر قبل العجز عن تفسيره، وقالوا أيضًا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ (يوسف: ٤٤) أي: ولا نقدر على تفسيرها.

تساؤلان:

١. **لِمَ عبّر القرآن عن حاكم مصر في ذلك الوقت بلفظ (المَلك) ولم يعبر بلفظ (الفرعون)؟**

قال فضل عباس: " وذلك لأنّ لقب فرعون جاء بعد يوسف عليه السلام؛ وبذلك صَحَّحَ (القرآن) الرواية الكتابيّة في التوراة التي عبّرت عن حاكم مصر في هذه الفترة بلفظ (الفرعون)." (فضل عباس وسناء عباس)

٢. **لِمَ لَمْ يفسر أحد رجال الدولة الكبار منام الملك ولو تخرّصاً (أي: كذبًا)؟**

الذي يظهر أنّ هذا الحلم قد صار حَديث الناس، وأشبه ما نقول اليوم صار قضية رأي عام؛ لذا خشي كبار الدولة من تفسيره ولو تخرصاً، ويحتمل أنّ ذلك ممّا قدّره الله تعالى؛ لتظهر براءة يوسف والله أعلم.

◎ **تَذَكرُ الناجي أمر يوسف:**

في خضم هذا اللجاج الدائر حول منام الملك تنّبه الناجي لأمر يوسف، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنۡهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعۡدَ أُمَّةٍ﴾ (يوسف: ٤٥) أي: قال الذي نجا من السجن وتذكر أمر

يوسف بعد مدّة طويلة[1] ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ (يوسف: ٤٥) أي: أنا سأخبركم بتفسير منام الملك الذي حار فيه الجميع.

ولعلّهم قد سألوه: ومن أين لك بتفسيره؟! فأخبر عن يوسف قائلاً: إنّ في السجن رجلاً فاضلاً كثير العلم، وأخبرهم بحذقه في تفسير منامه ومنام زميله الخباز، بحيث جاء تفسيره بشكل طابق الواقع تمامًا، وربّما لم يذكر لهم من أين سيأتي بالتأويل الصحيح؛ لأنه أراد أن يفاجئهم بخبره بعد حصوله على تأويله للرؤيا؛ فيكون ذلك أوقع في قلوبهم، وأسمى لشأن يوسف.

على كل حال: استأذن الناجي الملك أن يذهب إلى السجن ليأتيه بالتفسير الصحيح السديد، وخاطب ملكه بلفظ التعظيم والتمجيد، حيث جاء بصيغة الجمع فقال: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ (يوسف: ٤٥) أي: ابعثوني إلى يوسف لآتيكم – أيها الملك – بتفسير هذا الحلم.

والذي يبدو أنّ هذا السجن لم يكن في المدينة، وهذا ما نفهمه من قول الرجل: ﴿فَأَرۡسِلُونِ﴾ والله أعلم.

عندما سمع الملك كلام ساقيه سمح به من فوره، وكأنه وجد فيه ضالّته، فذهب ساقي الملك إلى السجن بأمر ملكيّ لمقابلة

---

(١) كلمة (أُمّة) من معانيها: المدّة الطويلة.

يوسف النبي، وربّما كانت السجون في ذلك الزمان في غياهب ظُلمات الأرض، لا يسمح فيها بزيارات أو مقابلات، إلّا بإذن خاصّ من الملك أو أصحاب الحظوات.

ولمّا كان مع الساقي هذا الإذن الخاصّ من الملك فقد تفتحت أمامه أبواب السجن، وقابل يوسف المحبوس منذ سنين، وقصّ عليه منام الملك العجيب، وطلب منه – بأمل – أن يفسره له دون تأخير أو أجل.

قال الرجل: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ (يوسف: ٤٦) أي: " يا يوسف يا أيها الصدّيق، وسماه صدّيقاً؛ لأنه كان قد جربّ صدقه في تعبير الرؤيا التي رآها في السجن، والصدّيق مبالغة من الصدق." (محمّد الصابوني)

﴿أَفۡتِنَا فِي سَبۡعِ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖ﴾ (يوسف: ٤٦) ثم ذكر تعليل طلبه للفتوى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَرۡجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ (يوسف: ٤٦) أي: فَسّرْ لنا هذه الرؤيا المهمة للناس.

◎ **تفسير يوسف منام الملك:**

سمع يوسف طلب الناجي، وأي شخص مكان يوسف من المؤكد أنه كان سيعنف هذا الرجل الناسي أن يذكر خبره للملك، ويسمعه أقذع عبارات اللوم والعتاب؛ لنسيانه ذكر أمره عند الملك كل هذه السنوات الطويلات، ولكن يوسف الكريم لم يعنف هذا الرجل الناسي، ولم يوبخه، وأيضاً لم يستغل الفرصة ويشترط خروجه من السجن مقابل تفسيره المنام، وإنما شرع في لحظته بدون إبطاء أو تأخير يفسر المنام كالآتي: بأنّ مصر سيأتي عليها سبع سنين تجود الماء فيها، وتخصب الأرض، وتكثر الغلات والخير، ثم تأتي بعدها سبع سنين مجدبة مَحِلة تأخذ مخزون السبع المتقدّمة.

ثم بشره يوسف بأنّ العام الثامن سيأتي مباركاً خصيباً، كثير الخير، غزير النعم، يمطر فيه الناس، ويفيض الماء، ويغاثون بعد القحط الشديد، وتكثر الغلات حتى يعصروها لكثرتها وزيادتها: ﴿ثُمَّ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَامٞ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعۡصِرُونَ ٤٩﴾ (يوسف: ٤٩)

وهذا العام لا مقابل له في رؤيا الملك، بل هو خارجٌ عنها، وقد أخبر به يوسف لزيادة تبشير الملك والناس، ولإفهامهم أن هذا العلم

إنما هو بوحي من الله تعالى الذي يجب أن يخلص له الجميع العبادة والطاعة.

ومن أين استدلّ يوسف على وجود هذا العام الخصيب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك؟

قال السعدي: " ولعلَّ استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك؛ لأنه فهم من التقدير بالسبع الشداد، أنّ العام الذي يليها يزول به شدّتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدبُ المستمرُّ سبع سنين متواليات إلّا بعام مخصب جدًّا." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

الحاصل: يوسف الكريم فسّر منام الملك، ثم أرشدهم لأفضل طرائق التعامل مع هذه الأزمة الاقتصاديّة الشديدة التي تلوح في الآفاق، بأنّ عليهم أن يقتصدوا في سنين الخصب لسنوات الجدب، فقال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (يوسف:٤٧ –٤٨)

أي: قال لهم: سيأتي سبع سنوات يفيض فيها الماء، فازرعوا فيهن بجدّ وعزيمة، واجعلوا ما حصدتم من محاصيل في سنابله لئلا يسوّس إلّا ما احتجتم إلى أكله، فلا بأس بأن تدرسوه لتأكلوه، أمّا الباقي فاتركوه في سنبله لمواجهة السنوات الجدب القادمات.

وتأمّل – يا رعاك الله –: جاء لفظ (تزرعون) بصيغة الفعل المضارع، وكأنهم قد امتثلوا أمره وهو يخبرهم عن هذا الحلّ، وكأن يوسف واثق من الحلّ الذي ذكره لهم.

قال القرطبي: " هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية التي هي: حفظ الأديان، والنفوس، والعقول، والأنساب، والأموال، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة." (القرطبي: ٢٠٠٢)

تساؤلان:

١. **مِنْ أين علم يوسف بهذا التأويل؟**

يبدو أن يوسف علمه وحياً، قال الزمخشري: " وذلك من جهة الوحي." (محمّد الصابوني)

٢. **ما وجه الجمع بين الخصب والبقر السمان والسنابل الخَضِر، ومن ناحية أخرى ما وجه الجمع بين الجدب والبقر الهزال والسنبلات اليابسات؟**

قال السعدي: " لعلَّ وجه الجمع – والله أعلم – أنّ الخصب والجدب لمّا كان الحرث مبنياً عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجدب بالعكس من ذلك، وكانت البقر هي التي تُحرث عليها الأرض، وتُسقى عليها الحروث في الغالب،

والسنبلات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبّرها بذلك لوجود المناسبة." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وهكذا فسر يوسف منام الملك تفسيرًا حكيمًا علميًّا منطقيًّا، كما وأرشدهم إلى كيفية التعامل مع المحنة القادمة تعاملًا علميًّا صحيحًا، فماذا فعل الملك وقومه؟!

◎ الملك يأمر بإخراج يوسف من السجن:

ما أن سمع الساقي هذا التفسير إلّا أسرع به – وهو يحفظه عن ظهر قلب – إلى الملك، وبمجرد سماع الملك هذا التفسير ما كان منه إلّا استحسانه، وعَظُمَ قدر يوسف في نظره، وأصدر أمراً ملكيًّا بالعفو عن يوسف وإخراجه من سجنه، وإحضاره لمقابلته، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ﴾ (يوسف: ٥٠) أي: قال الملك: أحضروه لأسمع منه تفسيرها بنفسي، ولأبصره بعيني.

وتأمّل: كان العلم سببًا مباشرًا لنجاته يوسف من كربة من كربات الدنيا، فكيف به مع كربات الآخرة؟!

على كل حال: رجع الساقي إلى يوسف حاملاً البِشارة التي طالما انتظارها كلُّ إنسان في مكان يوسف، وعلى غير المتوقع يرفض يوسف هذه المكافأة السنيّة حتى يبرأ عرضه، وتظهر نزاهة ساحته للجميع، وذلك منتهى العزّة النفسيّة، والكرامة النبويّة،

فالسجن أهون على النفس العزيزة من أن يخرج منه وهو يشعر بأنّ الناس تنظر إليه نظر المتهم.

قال القرطبي: " قال ابن عطية: كان هذا الفعل من يوسف أناه وصبراً، وطلباً لبراءة الساحة، وذلك إنه – فيما روي – خشى أن يخرج وينال من الملك مرتبة، ويُسكت عن أمر ذنبه صفحاً، فيراه الناس بتلك العين أبداً، ويقولون: هذا الذي راود امرأة مولاه، فأراد يوسف عليه السلام، أن يبيّن براءته، ويحقق منزلته من العفّة والخير، وحينئذ يخرج للإحظاء والمنزلة." (القرطبي: ٢٠٠٢)

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ (يوسف: ٥٠) أي: لمّا رجع رسول الملك إلى يوسف يخبره بعفو الملك ومطلبه في مقابلته، ردّ يوسف على الرسول: ارجع إلى سيدك الملك، فسأله عن قصّة النسوة اللواتي خدشن أيديهن، هل يعلم خبرهن؟! وهل يدري قصّتي؟!

لِمَ لم يكشف يوسف حقيقة أمره، واكتفى بقوله: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ (يوسف: ٥٠)؟

وذلك لحثّ الملك وتحضيضه على معرفة حقيقة أمره معهن، وزيادة في تهيج الملك على الجديّة في التحري، حيث حدوث أمر مثير كهذا يحدث في مملكة المَلك، والمَلك لا يعرف حقيقته لهو أمر يستدعي البحث والتحري.

ولِمَ جعل يوسف السؤال عن النسوة اللواتي قَطَّعْنَ أيديهنَّ دون امرأة العزيز؟

يجوز وفاء لحقّ زَوْجها عليه، ويجوز احترازًا من مكرها، ويجوز طالبًا للستر لها، ويجوز لأنهنّ كُنّ شواهد على إقرارها بأنها هي التي راودته.

إشكال: قال صلى الله عليه وسلم: " **ويرحمُ اللهُ لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثتُ في السجن طولَ ما لبث يوسفُ لأجبتُ الداعي.**" (رواه البخاري: ٣٣٧٢) **والإشكال هنا: إنّ الرسول قد اتّخذ في مسألة يوسف غير الوجه الذي اتّخذه يوسف، حيث رأى الرسول صلى الله عليه وسلم: أنه يجيب الداعي ويخرج، فهل هناك تعارض بين الوجهتين؟**

الجواب: لا تعارض إن شاء الله، قال القرطبي: " (الوجه الذي اختاره الرسول – صلى الله عليه وسلم) له جهة أيضاً من الجودة، يقول: لو كنتُ أنا لبادرتُ بالخروج، ثم حاولتُ بيان عذري بعد ذلك، وذلك أنّ القصص والنوازل هي معرضة لأنّ يقتدي الناس

بها إلى يوم القيامة، وأراد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حَمْلَ الناس على الأحزم من الأمور، وذلك أنّ ترك الحزم في مثل هذه النازلة، التاركَ فرصة الخروج من السجن، ربّما نتج له البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف آمن من ذلك بعلمه من الله، فغيره من الناس لا يأمن ذلك، فالحالة التي ذهب النبي – صلى الله عليه وسلم – إليها حالة الحزم، وما فعله يوسف – عليه السلام – صبر عظيم وجلد." (القرطبي: ٢٠٠٢)

تأكيد: العبد لا يلام عند دفع التهمة عن نفسه، بل ذلك مطلوب وبأي شيء يراه مناسباً.

◎ الملك يحقّق في قضية يوسف:

تعجب الملك في أمر يوسف، واستغرب من قصّته، واشتدّ فضوله ليعرفها، فأخذ يسأل عن سبب سجنه واحتجازه، وقرّر أن يحقّق في الأمر بنفسه، فأحضر النسوة بما فيهنَّ امرأة العزيز، وسألهنَّ عن: ما حقيقة أمر المراودة؟

﴿مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ (يوسف: ٥١)

قال سيد قطب: " رجع الرسول فأخبر الملك، وأحضر الملك النسوة يستجوبهنَّ، والخطب: الأمر الجلل، فكأنّ الملك استقصى فعلم أمرهنَّ، فهو يواجههنَّ مُقَرّراً الاتّهام، ومشيراً إلى أمر لهن جلل وشأن لهن خطير، ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ

عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾؟ ومن هذا نعلم شيئًا مهماً دار في حفل الاستقبال في بيت العزيز، وما قالته النسوة ليوسف، وما أشرن إليه من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة، ومن هذا نتخيّل صورة لهذه الأوساط ونسائها، حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ، فالجاهليّة دائماً هي الجاهليّة، إنه حيثما كان الترف، وكانت القصور والحاشية، كان التحلّل والتميع، والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرِسْتُقْراطيّة!" (محمّد الصابوني)

لم تستطع النسوة أمام عظمة الملك، وجديته لمعرفة الحقّ إلّا الإقرار بالحقيقة الكاملة، وذَكَرْنَ الراوية الصحيحة التالية: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ﴾ (يوسف: ٥١) أي: قُلْنَ بلسان واحد: معاذ الله أن يكون يوسف هو الذي أراد الفحشاء، وهذا القول منهن تعجب لعفّته ونقائه، لله درّه طاهراً عفيفاً!!

وبدورها لم تملك امرأة العزيز حينما سمعت اعترافات صديقاتها إلّا أن تقرَّ هي الأخرى بالحقّ المبين، فقالت: ﴿ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (يوسف: ٥١) ومعنى (حصحص): تبيّن وظهر بعد خفاء، أي: قالت امرأة العزيز: الآن ظهر الحقُّ وتبيّن بعد خفاء، أنا التي دعوته

للفحشاء، وهو بريء من هذه الخيانة النكراء، وصادق عندما قال: هي التي راودتني عن نفسي.

وهكذا كان هذا ما قدّره الله وأراده من إثبات براءة يوسف على رؤوس الأشهاد.

عندما سمع يوسف نتيجة التحقيق وهو في سجنه حمد الله على إظهار براءته، فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٢) أي: " ذلك الأمر الذي فعلته من ردّ الرسول حتى تظهر براءتي؛ ليعلم العزيز أني لم أخنه في غيبته بل تعففت عنها.[١] " (محمّد الصابوني)

ولمّا كان في هذا الكلام من يوسف تزكية للنفس قال يوسف متواضعاً: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ (يوسف: ٥٣) قال الزمخشري : " أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه؛ لئلا يكون لها مُزَكّياً، وبحالها معجباً ومفتخراً." (محمّد الصابوني)

---

(١) اخْتُلف فيمن قال ذلك الكلام؟ هل هو من كلام يوسف أم هل من كلام امرأة العزيز؟ والأظهر أنّ هذا من كلام يوسف لمّا بلغه تبرئة النسوة له، والله أعلم.

وتأمّل – يا رعاك الله –: قال يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾، ولم يقل: وما أبرئ نفسي إنها لأمارة بالسوء. قال السبت: " لأنَّ الأوّل يدلُّ على التعميم."

(خالد السبت: ١٤٢١)

ثم قال يوسف: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ وفي هذا القول إشارة لطيفة إلى أنّ نجاة النفس الأمارة بالسوء حتى تصبح نفساً مطمئنة منقادة لداعي الهدى، متعاصية عن داعي الردى ليس من قدرة الإنسان، وإنما يتحصل ذلك من فضل الله ورحمته بعباده.

ثم ختم يوسف كلامه: ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

(يوسف: ٥٣)

◎ خروج يوسف من السجن:

ظهرت براءة يوسف للجميع، ولله الحمد والمنّة، وخرج يوسف من السجن وهو مرفوع الرأس والهامة، مرهوب الجانب والمكانة، فقد خصَّهُ الملكُ بمنزلة ساميّة عالية دون سائر حاشيته، حيث قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِي﴾ (يوسف: ٥٤) أي: أخرجوه من سجنه، وسأجعله من خاصتي، ومن كبار دولتي، وأعيان حاشيتي.

قَبِلَ يوسف هذه المرّة دعوة المَلك، وذهب لمقابلته وهو منشرح الصدر، مستريح القلب، هادئ النفس، نظيف السمعة، سليم السيرة، وعندما كلّم يوسف الملك انشرح صدر الملك ليوسف، وأعجبه عقله، كما أعجبه من قبل حسن تفسيره لمنامه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾ (يوسف: ٥٤) أي: إنك عندنا صاحب مكانة ولست بمتهم، وصاحب أمانة ولست بخائن.

ثم عرض عليه العمل عنده، وترك له حرية اختيار هذه الوظيفة.

فماذا يختار يوسف؟!

اختار يوسف وظيفة القائم على ممتلكات الدولة وشؤونها الماليّة، كما نسميه اليوم وزير التموين والتجارة الخارجيّة، حيث قال بعزّة وإباء: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِ﴾ (يوسف: ٥٥) أي: " اجعلني على خزائن جبايات الأرض وغلالها، وكيلاً حافظاً مدبّراً." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وأردف يوسف قائلاً: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ (يوسف: ٥٥) أي: " (إني) حفيظ للذي أتولّاه، فلا يضيع منه شيء في غير محلّه، وضابط للداخل والخارج، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع،

والتصرّف في جميع أنواع التصرفات." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

قال القرطبي: " ولم يقل يوسف إني حسيبٌ كريمٌ، وإن كان النبي وصفه: " **إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ الكريمِ ابنِ الكريمِ يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ**"، ولم يقل: إني جميل مليح، (وأن وصفه النبي بأنه **قد أُعطي شطر الحسن**) إنما قال: إني حفيظ عليم، فسألها بالحفظ والعلم لا بالنسب والجمال."

(القرطبي: ٢٠٠٢)

تساؤلان:

١. **هل طَلَبُ يوسف – عليه السلام – الإمارة يعارض قول النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تسألِ الإمارة" (رواه البخاري: ٧١٤٧)؟**

الجواب: لا تعارض إن شاء الله، حيث يوسفُ – عليه السلام – نبيٌّ رسولٌ، والرسول مكلف برعاية مصالح الأمّة، وهو يعلم أنه ستأتي سنوات صعاب، ولا يمكنه القيام بمصالح الأمّة في هذه الفترة الحرجة إلّا من خلال هذا المنصب، وما لا يتمُّ الوجب إلّا به فهو واجب.

قال الأنصاري: " إنما طلب ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى، وإقامة الحقّ، وبسط العدل ونحوه، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

وقال السعدي: " لا تذمُّ الولاية، إذا كان المتولّي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذمُّ، إذا لم يكن فيه كفاية، وكان موجود غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يُرد بها إقامة أمر الله، فبهذه الأمور ينهى عن طلبها."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

٢. كيف جاز ليوسف – عليه السلام – أن يمدح نفسه: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ **(يوسف: ٥٥)، والله يقول:** ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ **(النجم: ٣٢)؟**

الجواب: هناك فرق كبير بين مَنْ يمدح نفسه، وبين مَنْ يخبر عن ذاته وصفاته، ويوسف عندما قال للملك: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ إنما يخبر الملك عن نفسه، ويوسف احتاج إلى ذكر هذه الصفات حتى يطمئن الملك أنَّ يوسف كما أنه كامل في عُلوم الدين، هو – أيضًا– عالم في أمور الدنيا.

وقال القرطبي: " إنما قال ذلك عند مَنْ لا يعرفه، فأراد تعريف نفسه، وصار ذلك مستثنى من قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ (النجم: ٣٢)" (القرطبي: ٢٠٠٢)

وإن سلمنا جدلًا أنّ قول يوسف كان مدحاً وليس إخباراً، فلا ضيرَ فيه؛ لأنه لم يكن به تطاول أو تفاخر أو وصول إلى شيء بسببه من غير استحقاق.

◎ يوسف عزيز مصر:

وافق الملك على طلب يوسف، رغبة فيه وتكرمة له، فصار يوسف عزيز مصر، وتحقّق ليوسف التمكين الثاني الكامل له في ديار مصر، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (يوسف: ٥٦) أي: بعد السجن والضيق، صار يوسف مطلق الركاب بديار مصر، فصار وزيراً وأي وزير، صار وزير التموين.

ومع هذه الوظيفة المرموقة الرفيعة، وهذا المنصب السامي العالي، كان له كامل الحريّة في التصرف في هذه الوظيفة وفي هذا المنصب كيفما يشاء، وكما يقال: وزير بكامل الصلاحيات والتصرفات، قال تعالى: ﴿يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ﴾ (يوسف: ٥٦) أي: يتصرف في المملكة كما يشاء ويختار.

ثم بيّن الله سبب هذا التمكين ليوسف: ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (يوسف: ٥٦) أي: وهذا التمكين جزاء المؤمنين في الدنيا.

ولمّا كان من الممكّن أن تركن النفوس إلى الدنيا بعد أن تسمع هذا الجزاء الدنيوي، فاحترزت الآيات من هذا الركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها، فعدّلت الآية النظرة بين الدنيا والآخرة حيث بيّنت أنّ ما يدّخره الله تعالى لعباده المؤمنين في الآخرة من الثواب الجزيل أفضل من ثواب الدنيا مهما كان، فقال تعالى: ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يوسف: ٥٧) أي: أجر الآخرة الباقي وثوابها الدائم خير للمؤمنين المتقين من أجر الدنيا الزائل المنقطع، وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى أنّ المطلب الأعلى للمؤمن يجب أن يكون ثواب الآخرة.

وهكذا تحقّق ليوسف التمكين الثاني في ديار مصر، ولله الفضل والمنّة!!

◎ اللقاء الأوّل بين يوسف وإخوته:

جاءت سنوات الخصب السبع بخصبها وخيرها ونفعها سريعة، وقد اجتهد فيها يوسف – عليه السلام – اجتهادًا كبيرًا؛ ليوفر الزائد من الغلات لسنوات القحط القادمات، ثم مرّت سنوات الخصب

بخيرها سريعًا، وأطلّت سنوات الجدب بقسوتها طويلًا، والتي لم تُطلّ على مصر وحدها، بل أطلّت على جميع البلدان من حولها.

فشمل الجدب جميع أنحاء المعمورة، وبالطبع شمل بلاد الشام، وعندما اشتدّ القحط بأهل الشام، وأحسّوا بألم الجوع والحرمان، لجأوا إلى مصر سائلين، وإلى غلاتها معوزين، فقد صارت مصر آنذاك قبلة للمحتاجين والمحرومين، ومن جملة مَنْ رحل إلى مصر من بلاد الشام لطلب الطعام أبناء يعقوب عليه السلام.

سافر أبناء يعقوب إلى مصر ما عدا بنيامين الذي بقي عند أبيه في الشام، ولمّا وصل أبناء يعقوب إلى مصر بسلام، ودخلوا على يوسف بأمان، وربّما كانت هذه عادة الغرباء الداخلين مصر في هذه الأيام أن يدخلوا على عزيزها صاحب المكانة والمنزلة والمقام، وما أن دخلوا على يوسف سرعان ما عرفهم، أمّا هم لم يعرفوه؛ وذلك لأنه قد ناهز الأربعين من عمره، وأصبح في مكان مهاب لا يتوقع وصوله له حتى وإن كان حيًّا، وشكله بالطبع قد تغيّر، أمّا هم فعلى حالهم من ملبس، ولغة، وهيئة، ومنظر، قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ٥٨﴾ (يوسف: ٥٨)

أكرم يوسف نزلهم، وأجزل لهم عطاءهم، حيث هيّأ لهم الميرة (أي: المؤونة من الأطعمة وغيرها) التي يحتاجونها لأهلهم في

فلسطين، وزودهم بما يحتاجونه من طعام لسفرهم، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ﴾ (يوسف: ٥٩) والجهاز: هو ما يحتاجه المسافر من زاد ومتاع.

شاهد إخوة يوسف هذا الكرمَ السخيَّ من العزيز فتشجعوا وطلبوا حملين إضافيين لأبيهم وأخيهم بنيامين الباقين في الشام، فقد كان من عادة يوسف إعطاء كل شخص حمل بعير واحد فقط، لا يزيد عليه ولا ينقص؛ وذلك ليكفي المخزون للسنوات السبع المجدبات الطويلات، فلمّا طلب إخوة يوسف الحملين الإضافيين، انتهز يوسف ذلك، وأظهر استغرابه من إبقاء أبيهم لبنيامين، وهذا إن دلّ يدلّ على فضل هذا الابن ورجاحة عقله، وإن كان هذا هو حالهم من الفضل والعقل كما يرى، فكيف حال أخيهم هذا؟ بالتأكيد لهو أعجوبة في العقل والأدب، فَطَلَبَ إحضاره معهم حتى يراه إذا أرادوا العودة مرّة ثانية.

﴿قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ﴾ (يوسف: ٥٩ – ٦٠)، وشجعهم على ذلك بقوله: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ (يوسف: ٥٩) أي: ألا ترون أني أتمّ الكيل بغير تخسير، وأكمل الوزن بغير تطفيف، وحذرهم إن أخلوا بهذا الشرط

ألّا يقربوا بلده، وبالتالي لا كيل لهم عنده ولا طعام ﴿فَإِن لَّمۡ تَأۡتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيۡلَ لَكُمۡ عِندِي وَلَا تَقۡرَبُونِ﴾ (يوسف: ٦٠)

لم يكن في وِسْعِ إخوة يوسف إلّا إبداء الموافقة على هذا الأمر، والعزم على تنفيذه بلا قيد أو شرط، فقالوا: ﴿سَنُرَٰوِدُ عَنۡهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ (يوسف: ٦١)

وهكذا صارت هذه الواقعة سببًا في اجتماع يوسف بإخوته، وظهور بشائر ما أخبره الله تعالى به ليوسف وهو في الجبّ وهو صغير: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ (يوسف: ١٥)

تساؤلان:

١. كيف استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلبه إحضار أخيه بنيامين؟

قال القرطبي: " يجوز أن يكون الله – عزّ وجلّ – أمره بذلك ابتلاء ليعقوب؛ ليعظم له الثواب، فاتّبع أمره فيه." (القرطبي: ٢٠٠٢)

٢. ذَكَرَ الله في هذه الآية: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾، بينما ذَكَرَ في آية قادمة: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ﴾، فما السرُّ في ذلك؟!

قال الأنصاري: " قاله هنا بالواو، وقاله بعدُ بالفاء؛ لأنه ذكر هنا مجيئهم إلى يوسف، فناسبته الواو، الدالّة على الاستئناف، وذكر بعدُ عند انصرافهم عنه، عطفاً على (لمّا دخلوا) فناسبته الفاء الدالّة على الترتيب والتعقيب."

(زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

◎ إعادة يوسف الثمن خلسة لإخوته:

أكمل إخوة يوسف شراء الطعام، وعندما تهيّأوا للسفر وهمّوا بالرحيل غير بعيد، طلب يوسف من أحد موظفيه أن يعيد لهم الثمن الذي دفعوه في رحالهم خلسة دون علمهم بذلك، قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِفِتۡيَٰنِهِ ٱجۡعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ فِي رِحَالِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَعۡرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ (يوسف: ٦٢)

لماذا أعاد يوسف الثمن الذي دفعه إخوته إلى رحالهم؟

ذكر المفسرون أسباباً عدّة، منها:

١. تَخَوّف يوسف ألّا يكون معهم ثمن غيره، فلا يستطيعون الرجوع مرّة ثانية.

٢. أنهم متى فتحوا متاعهم ووجدوا الثمن الذي دفعوه معهم، وعلموا أن ذلك كان كرماً وسخاء من يوسف، وسيكون ذلك تشجيعاً لهم ودعوة للعودة مرّة ثانية.

٣. متى شاهدوا الثمن الذي دفعوه في رحالهم، وقع في قلوبهم أنهم نسوا دفعه، أو وضعوه في رحالهم خطأ، وهم أبناء الأنبياء، فسيعودون ليعرفوا سبب وجود الثمن معهم.

ولعلَّ التعليل الأوّل هو الأقرب، والله أعلم.

◎ محاولة إخوة يوسف إقناع أبيهم بالموافقة على شرط العزيز:

انطلق إخوة يوسف إلى بلدهم فلسطين عائدين، وما أن أناخوا إبلهم إلّا أن توجهوا إلى أبيهم يعقوب قاصدين، وراحوا يحدثونه بخبر رحلتهم المثيرة، وبالشرط العجيب الذي قطعه عليهم عزيز مصر، ثم أخذوا يتلطفون لأبيهم ويقنعونه بالموافقة على شرط العزيز: ﴿يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ (يوسف: ٦٣) أي: يا أبانا لقد حكم عزيز مصر بعدم بيعنا أي طعام بعد هذه المرّة إذا لم نأخذ معنا أخانا الصغير بنيامين ليراه عند عودتنا إليه، وأنتَ تعلم أننا لا بدَّ من عودتنا إليه لجلب ما نحتاجه من طعام، فنرجوك أن توافق على اصطحابنا بنيامين، ونعدك سنحفظه حفظًا تامًّا.

سمع يعقوب هذا الالتماس من أبنائه فإذ به يحرك حزناً دفيناً، ويُلهب حنيناً كامناً في نفسه، لم تفنِه توالي الأيام والسنين، فتذكر يعقوب من فوره مصابه الأليم في يوسف، وعاودته الأحزان المبكية.

عندها توجه يعقوب لأبنائه لائماً: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[1] (يوسف: ٦٤) أي: " هل أنتم صانعون به إلّا كما صنعتم بأخيه من قبل، تغيبونه عني وتحولون بيني وبينه، فالله أرحم الراحمين بي، وسيرحم كبري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يردَّهُ عليّ ويجمع شملي به، إنه أرحم الراحمين."

(ابن كثير: ١٩٨٧)

وقَدْ يَجْمَعُ اللهُ الشَّتيتيَنِ بَعدَما * * * يَظُنّانِ كُلَّ الظَّنِّ أنْ لا تَلاقيا

وقد حمل كلام يعقوب السابق عتاباً رقيقاً، ولوماً مهذباً لأبنائه، وكأنه يبدد به ما ظنّه يعقوب أنها مؤامرّات جديدة من أبنائه.

---

(١) اشتمل جواب يعقوب على دعاء عظيم لحفظ الذرّيّة، وهو: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾!

ويبدو أنّ يعقوب قد لانَ بهذا الكلام لإرساله معهم إلى مصر.

على كل حال: أجّلَ أبناءُ يعقوب مناقشة أبيهم في شرط عزيز مصر، لما رأوا من إصرار أبيهم على عدم سفر بنيامين معهم، ثم أخذوا يتفقدون رحالهم، وإذ بهم يتفاجؤون بأنّ المال الذي دفعوه كثمن لطعامهم موجود معهم في رحالهم ﴿وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ (يوسف: ٦٥) أي: لمّا أخذوا يتفقدون أوعيتهم التي جاءوا بها من مصر، تفاجأوا بوجود الثمن الذي دفعوه معهم في أوعيتهم، عندها ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَا﴾ (يوسف: ٦٥) أي: فقالوا لأبيهم: ماذا نطلب من ملك كريم أكثر من ذلك؟! فقد منحنا ما نحتاج من طعام، وردّ علينا ثمنه من حيث لا ندري، مع سابق إحسانه لنا ونحن عنده، فهل فوق هذا الإحسان إحسان؟!

وأخذوا يلحون على أبيهم، خاصّة بعدما قويت حجتهم بوجود الثمن معهم أوّلاً، وباحتياجهم للطعام ثانياً، وبحصولهم على كيل إضافي لبنيامين ثالثاً، وبتلبية طلب العزيز، وأخيرًا بيّنوا: إن ذلك الكيل الذي أعطاهم إياه عزيز مصر طعام يسير، لا يكفينا إلّا مدّة يسيرة قليلة من الزمان ﴿ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ﴾ (يوسف: ٦٥)!

وقد رجوا من هذا الكلام أن يستنزلوا أباهم عن رأيه، **فهل يضعف يعقوب أمام إلحاحهم؟!**

◎ موافقة يعقوب على ذهاب بنيامين إلى مصر:

وافق يعقوب على طلب أبنائه وهو بعث بنيامين معهم إلى مصر، ولولا حاجته وحاجة قومه الشديدة إلى الطعام لما بعث الولد العزيز إلى المخاوف والأخطار، ولكنها أقدار الله التي لها أحكام وأسرار، وفي النهاية يقدّر الله ما يشاء ويختار.

بعث يعقوب – عليه السلام – بنيامين معهم بعدما أخذ عليهم العهود والمواثيق على حماية بنيامين، وردّه سالمًا إلّا أن يحدث أمراً لا يستطيعون دفعه، قال تعالى: ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِۦٓ﴾ (يوسف: ٦٦) أي: قال لهم أبوهم: لن أرسل معكم بنيامين إلى مصر حتى تعطوني عهداً مؤكداً، وتحلفون يميناً مغلظاً لترجعونَّه إليّ سالماً، واستثنى وقال: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ (يوسف: ٦٦) أي: إلا أن تغلبوا على أمركم ولا تستطيعوا حمايته وتخليصه، بعدما تستنفذون سبلكم وحيلكم.

قَبِلَ أبناء يعقوب بالشرط الذي قطعه عليهم أبوهم، وآتوه مواثيقهم عليه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ (يوسف: ٦٦)

حينها وافق يعقوب على إرسال بنيامين معهم، وأشهد الله على مواثيقهم معه، فقال: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ (يوسف: ٦٦) أي: الله شاهد ورقيب على ما نقول، والمعنى: الله شاهد على هذه المواثيق التي قطعتموها على أنفسكم.(١)

وبحرص الأب أوصاهم عند دخولهم مصر بوصية حانية مشفقة، وهي: أن يدخلوها من جهات متفرقة، خوفاً عليهم من العين الغادرة؛ لأنّ أشكالهم كانت حسنة، وصورهم بهية.

قال يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٦٧ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (يوسف: ٦٦ – ٦٧)

---

(١) وفي اختيار يعقوب – عليه السلام – إشهاد الله تعالى على عهود أبنائه نكتة تربوية عظيمة منه، وهي غرس مراقبة الله في نفوس أبنائه، وجعلها الوازع الحقيقي لهم.

وقفتان في وصية يعقوب السابقة:

١. قال يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ﴾ وقال: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ﴾ وفي ذلك نكتة بديعة، وهي: تعليم منه لأبنائه أنه كما لا يغني الحذر من القدر، فعلى الإنسان أن يعمل بسُنّة الأخذ بالسبب؛ لذا صدقه تعالى، فقال: ﴿إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا﴾!

٢. في قول يعقوب: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لطيفة تربوية إيمانية عظيمة، وهي: تعليم منه لأبنائه معنى مهم من معاني الإيمان بالله، ألا هو: إنّ عواقب الأمور ودقائقها وحِكَمها، تغيب عن كثير من الناس بما فيهم الأنبياء والعلماء، فالقَدَرُ سرّ مكتوم لا يعلمه إلّا الله.

◎ حيلة يوسف لإبقاء بنيامين عنده:

قدم إخوة يوسف إلى مصر مرّة ثانية، وفي هذه المرّة كان معهم أخوهم الصغير بنيامين، وعندما دخلوا على يوسف، لمح يوسف بنيامين معهم، ولك أن تتخيّل حجم مشاعر يوسف عندما رأى أخاه الصغير بنيامين، فكانت مشاعر وأحاسيس لا يمكن أن

يُوصف، حملت الكثير من الحنين للذكريات الجميلة مع أخيه الصغير، ومع أبيه الغائب البعيد، ومع بلده التي أُبعد عنها قسراً.

على كل حال: أكرم يوسف نزل إخوته كسابق عهده معهم، وما أن اختلى بأخيه بنيامين إلّا أنْ أطلعه سرًّا بأنه أخوه، وأخبره بما جرى معه حتى صار في هذا المقام المرموق، وسَلّاه عمّا كان منهم من إساءتهم إليه، ولعلّه أخبره بخطته لإبقائه عنده، وأمره أن يكتم ذلك كله عن جميع إخوته، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَخَاهُۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبۡتَئِسۡ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (يوسف: ٦٩)

ما حيلة يوسف لإبقاء بنيامين عنده؟

كانت حيلة يوسف الذكيّة لإبقاء بنيامين عنده في مملكته الفتيّة، أنه أمر أحد موظفيه بوضع السقاية، وذلك بطريقة خفية عن جميع الإخوة في متاع بنيامين، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمۡ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ (يوسف: ٧٠)

زيادة وتفصيل:

١. **ما المقصود بالسقاية؟**

السقاية: هي كأسٌ لشرب الملك أُتّخذت مِكْيالاً تُكال به الغلات.

٢. ذُكرت السقاية مرّة، وذُكر صواع الملك مرّة أخرى، فهل هما مختلفان؟

قيل: هما شيءٌ واحدٌ، وقد قيل: " لعلّ يوسف كان يسميه سقاية، وعبيده يسمونه صواعاً." (الفخر الرازي)

والصواب: " يُسمى سِقاية باعتبار أوّل حاله، حيث كان مشربة يُسقى بها الملك، ثم يُسمى صواعاً باعتبار آخر أمره: لأنّ الصاع آلة الكيل." (محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

٣. لِمَ اتّخذ هذا الإناء مِكْيالاً؟

قال الدرويش: " اتّخذ هذا الإناء مِكْيالاً لعزّة ما يُكال به في ذلك الوقت." (محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

على كل حال: بعد أن أنهى إخوة يوسف شراء الطعام وهمّوا بالرحيل، وأخذوا يسيرون غير بعيد، إذ بوكيل البيع والشراء ينادي بصوت عالٍ: توقفوا أيها القوم إنكم سارقون!

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلۡعِيرُ إِنَّكُمۡ لَسَٰرِقُونَ﴾ (يوسف: ٧٠) أي: نادى منادٍ على إخوة يوسف وهم

يتجهزون للسفر، ويحتمل وهم منطلقون إلى بلادهم، قائلًا: يا أصحاب القافلة توقفوا فأنتم متهمون بالسرقة[١].

وكيف استحلّ هذا المنادي أن يتهمهم بالسرقة؟

قال الصابوني: " وإنما استحلَّ أن يرميَهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه." (محمّد الصابوني)

وقال الأنصاري: " إنما قاله تورية عمّا جرى منهم مجرى السرقة من فعلهم بيوسف وما فعلوه أوّلاً."

(زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

على كل حال: كان هذا من يوسف كيدًا بارعًا، قال ابن القيم: " وهذا من لطيف الكيد: (لأنه أبعد من التفطن للحيلة)، فكأنه لمّا خرج (إخوة يوسف) وارتحلوا، وفصلوا عن المدينة (قد) احتاج الملك إلى صواعه لبعض حاجته إليه، فالتمسه، فلم يجده، فسأل عنه الحاضرين فلم يجدوه، فأرسل في أثر إخوته، وهذا أحسن وأبعد من التفطن للحيلة من التفتيش في الحال قبل (ابتعادهم)." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

---

(١) العير يقصد بها هنا: أصحابها، والأصل في العير: أنها اسم للإبل التي تحمل الطعام، ثم تجوز فيها فاطلقت على كل قافلة تحمل الزاد وألوان التجارة.

تفاجأ إخوة يوسف ممّا سمعوه، وسرعان ما التفتوا إلى المنادي مندهشين قائلين: ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ (يوسف:٧١)، وفي قولهم ﴿مَّاذَا تَفۡقِدُونَ﴾ بدلاً من (ماذا سرقنا؟) جزماً منهم أنهم أبرياء من تهمة السرقة أوّلاً، وإرشادًا للمنادي إلى مراعاة حسن الأدب معهم ثانيًا بعدم نسبة البريئين إلى تهمة السرقة جزافًا.

وقد التزم وكيل البيع والشراء نفس أدبهم، فلم يقل لهم: سرقتم صواع الملك، بل قال: ﴿نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ﴾ (يوسف: ٧٢)

وحتى تنطلي عليهم الحيلة، فقد وعدهم المنادي بمكافأة سنيّة وهي: ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ (يوسف: ٧٢) أي: أجر من يجده حمل بعير، وأنا به كفيل، وهذا الوعد لا يَعِد به إلّا مثل موظف كبير، ولعلّه هو المؤذن السابق المتفقد، ولعلّه قاله بتوجيه من يوسف.

وتأمّل: جَعْلُ المكافاة حمل بعير إضافي فيه دليل على أنها كانت جائزة سنيّة، حيث كانت حفنة شعير – في هذا الزمان القحط – أحبّ للإنسان من ملء الأرض ذهباً.

وتأمّل أيضًا هذا الكيد اللطيف: قال ابن القيم: " إنّ المؤذن قال: إنكم سارقون ولم يعين المسروق، حتى سألهم (إخوة يوسف) عنه، فقالوا لهم: ما تفتقدون؟ قالوا: نفقد صواع الملك، فاستقرّ عند

(إخوة يوسف) أنّ الصواع هو المتهم به، وأنهم لم يفقدوا غيره، فإن ظهر لم يكونوا ظالمين باتّهامهم بغيره." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

الحاصل: أجاب إخوة يوسف المنادي: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ عَلِمۡتُم مَّا جِئۡنَا لِنُفۡسِدَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ (يوسف: ٧٣) أي: تالله نحن لسنا بسارقين وليست هذه شيمتنا ولا خططنا، وأنتم تعلمون منا خلاف ما تدعون علينا، قالوا ذلك وهم على يقين من صدق أنفسهم.

بِمَ استشهد إخوة يوسف على براءتهم؟

قال البيضاوي: " استشهدوا على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم، كردّ البضاعة التي جعلت في رحالهم، (وتكميم) أفواه الدوابّ لئلا تتناول زرعاً أو طعامًا لأحد. " (محمّد الصابوني)

وما ذكره البيضاوي – رحمه الله – يحتاج إلى دليل شرعي صحيح، ويبدو أنّ مصدره الإسرائيليّات.

والصواب ما قاله السعدي: " وأقسموا على أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين؛ لأنهم عرفوا وسبروا من أحوالهم ما يدلّهم على عفّتهم وورعهم، وأنّ هذا الأمر لا يقع منهم بعلم مَنِ اتّهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

على كل حال: لم يقتنع وكيل البيع والشراء بما قاله إخوة يوسف، فقال: ﴿فَمَا جَزَآؤُهُۥٓ إِن كُنتُمۡ كَٰذِبِينَ﴾ (يوسف: ٧٤) أي: فما عقوبة السارق إن كان منكم؟

أجابوه واثقين من براءتهم: ﴿جَزَآؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَآؤُهُۥ﴾ (يوسف: ٧٥) أي: عقوبة السارق الذي يوجد الصواع في أمتعته بأن توقع عليه عقوبة السارق في شريعتنا، وهي: أن يُسترق ويصبح عبداً مملوكاً لمن سُرِقَ منه.

وتأمّل – وفقك الله للحق –: لم يقولوا جزاء السارق أو جزاء سرقته بل قالوا: ﴿مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ﴾ لتأكدهم من كمال نزاهتهم، وبراءة ساحتهم من جريمة السرقة، حتى وكأن ألسنتهم – أساسًا – لا تطاوعهم بأن ينطقوا بها في هذا المقام.

ثم قالوا: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (يوسف: ٧٥) أي: " كذلك نجازي من تعدى حدود الله بالسرقة وأمثالها، وهذا القول منهم هو الحكم في شريعة يعقوب، وقد نسخ بقطع الأيدي في الشريعة الإسلاميّة." (محمّد الصابوني)

وتأمّل هذا الكيد اللطيف: قال ابن القيم: " ما أجراه الله على ألسن إخوة يوسف، وذلك خارج عن قدرة يوسف، وكان يمكنهم أن يتخلصوا من ذلك بأن يقولوا: لا جزاء عليه، حتى يثبت أنه هو

الذي سرق، فإنّ مجرد وجوده في رحله لا يوجب أن يكون سارقاً، وقد كان يوسف – عليه السلام – عادلاً لا يؤخذهم بغير حُجّة." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

وقال ابن القيم: " وكان يمكنهم التخلص أيضاً بأن يقولوا: جزاءه أن يفعل به ما تفعلون بالسُّراق في دينكم، وقد كان في دين مَلك مصر فيما ذكر: أنّ السارق يُضرب ويُغرم قيمة المسروق مرّتين، فلو قالوا له ذلك، لم يمكنه أن يلزمهم بما لم يلزم به غيرهم؛ لذا قال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ (يوسف: ٧٦) أي: ما كان ليمكنه أخذه في دين ملك مصر؛ لأنه لم يكن في دينه طريق إلى أخذه." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

وقال ابن القيم: " (في قولهم: ﴿جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِي رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ﴾ (يوسف: ٧٥) به لطيف الكيد): أنه لمّا أراد أخذ أخيه توصل إلى أخذه بما يقرّ أخوته أنه حقٌّ وعدلٌ، ولو أخذه بحكم قدرته وسلطانه لنسب إلى الظلم والجور ...، فتوصل إلى أخذه بطريقة يعترف إخوته أنها ليست ظلماً." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

وهكذا مرّت حيلة يوسف الذكيّة على إخوته، وزيادة في حَبْكِها ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ قَبۡلَ وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ (يوسف:٧٦) أي: فبُدأ

التفتيش برحالهم، ثم انتقال إلى رحل بنيامين، وما أن بُدأ بتفتيش رحل بنيامين إذ بالسقاية تُستخرج منه على مشهد منهم جميعًا ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِۚ﴾ (يوسف:٧٦)

وتأمّل هذا الكيد اللطيف أيضًا: قال ابن القيم: " فإنه لو بدأ بوعاء مَنْ هو فيه لقالوا: وما يدريه أنه في هذا الوعاء، دون غيره من أوعيتنا؟ وما هذا إلّا بمواطأة وموافقة! فأزال التهمة هذه بأنّ بَدأ بأوعيتهم أوّلاً." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

ويطوي القرآن ما اعترى إخوة يوسف من دهشة وخزي خاصّة بعدما وجدت السقاية في رحل أخيهم الصغير بنيامين؛ ليترك للعقول والأفهام تتخيّله وتتصوّره.

وبذلك استطاع يوسف أن يبقي أخاه الصغير عنده بخطة محكمة، والتي ما كان لها أن تنجح لولا أنها كانت بتوفيق من الله وإذنه وتدبيره، قال تعالى ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ (يوسف : ٧٦) أي: كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف، وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده، حيث ألهمه أن يضع السقاية في رحل أخيه، وبأن جعل الحكم على السارق وفقًا لشريعتهم.

﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ (يوسف : ٧٦) أي: ما كان يمكن ليوسف أن يحتجز أخاه عنده

إذا عوقب بحكم القانون المصري الذي لا يجيز استراق السارق، وذلك كان كله بمشيئته تعالى وإذنه.

ثم ختم سبحانه ما قصّه عن حيلة يوسف الربانيّة بقوله: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ (يوسف : ٧٦) أي: كما رفع تعالى يوسف بالعلم النافع، ومعرفة الطرائق الموصلة إلى مقصدها، يرفع سبحانه كذلك مَنْ يشاء به، وفوق كل عالم مَنْ هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى علّام الغيب والشهادة، علّام السرّ وأخفى، الفتاح العليم.

تساؤلان:

1. **الكيد في الأصل معناه: الحيلة والخديعة، وذلك في حقّ الله محال، فما المقصود بالكيد في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾؟**

قال الدرويش: " أمثال هذه الألفاظ الموهمة في حقّ الله تعالى تُحمل على نهايات الأغراض لا على بداياتها، فالكيد: السعي في الحيلة والخديعة ونهايته إيقاع الإنسان من حيث لا يشعر في أمر مكروه، ولا سبيل له إلى دفعه، فالكيد بالنسبة لله تعالى محمول على هذا المعنى، وقال ابن الأعرابي: الكيد: التدبير بالباطل والحقّ، فعلى هذا يكون المعنى: كذلك

دبرنا ليوسف، وعبارة ابن الخشاب: ولكاد: استعمال آخر تكون فيه بمعنى أراد ....، وحملوا عليه قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾أي: أردنا."

(محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

٢. **الحيلة التي قام بها يوسف بالجملة هي كذب وتزوير، فكيف أقدم يوسف على هذا؟**

أوّلاً: نذكر أنّ يوسف قد وصفه الله بالصدّيق أي كثير الصدق.

ثانياً: يوسفُ نبيٌّ مرسلٌ، وكانت هذه الحيلة بتعليم من الله سبحانه، ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ (يوسف: ٧٦) قال الصابوني: " وقد دلّت هذه الآية على أنّ تلك الحيلة كانت بتعليم من الله وإلهامه له."

(محمّد الصابوني)

ثالثاً: إن عددنا هذه الحيلة من تخطيط يوسف وتدبيره، فهذه الحيلة من الكيد المحبوب المراد الذي يحبّه الله ويرضاه، لِمَا فيها من الحكمة والمصلحة المطلوبة، قال الأنصاري: "

إنّ حكم ذلك حكم الحيل الشرعية التي يتوصل بها إلى مصالح دينيّة، كقوله تعالى لأيّوب: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثًا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ (ص: ٤٤)، وقول إبراهيم في حقّ زَوْجه: هي أختي، لتسلم من يد الكافر." (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

الحاصل: أنّ ما قام به يوسف لا إثم فيه أو ظلم.

◎ إن يسرق فقد سرق له أخ من قبل:

عندما رأى إخوة يوسف السقاية تستخرج من رحل أخيهم بنيامين، سُقط في أيديهم، وقالوا في غيظ وحنق: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ (يوسف: ٧٧) أي: " إن يسرق هذا الأخ فليس هذا غريباً منه، فقد سرق أخ له من قبل يعنون بذلك يوسف، ومقصدهم تبرئة أنفسهم، وأنّ هذا وأخاه قد يصدر منهما من السرقة (ما يصدر)." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وتأمّل: إخوة يوسف لا يزالون يعدون يوسف وأخاه بنيامين ليسوا بأشقاء لهم، حيث قالوا: ﴿إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ﴾ فلم يقولوا: " وإن يسرق فقد سرق أخ لنا من قبل"!

يا للعجب! تأمّل ما الذي يغرسه الحقد في النفوس؟! رغم كل هذا الزمن المنقضي يتهمون أخاهم يوسف بهذا الاتّهام الكاذب!!

وما هذا الذي أُتهم يوسف بسرقته؟!

ذُكر: أنَّ الذي أُتهم يوسف بسرقه هو صنم جدّه (من جهة أمّه) ثم كسره، وقيل: كان يوسف في كفالة عمته، ولجماله وحسنه وكمال عقله، أرادت أن تبقيه عندها، فاحتلت بأنه سرق منطقها (كساء يشبه القميص)؛ لتبقيه عندها وفقاً لشريعتهم، والذي يبدو أنّ ذلك كله من الإسرائيليّات.

والصواب: أنّ يوسف لم يسرق شيئًا، وأمّا اتّهامهم هذا فيبدو أنه من ضمن كذبهم على يوسف غفر الله لهم، وهو أرحم الراحمين.

الحاصل: سمع يوسف هذا الاتّهام الكاذب الشنيع، فشعر بغضاضة شديدة، وحزن في نفسه حزناً عميقاً بسبب هذه المقولة الفاجرة في المخاصمة، وممّن؟! من أقرب الناس إليه! من إخوته! وصدق طُرفة بن العبد:

وَظُلْمُ ذَوِي القُرْبى أشدُّ مَضاضَةً * * * عَلى المَرْءِ مِنْ وَقْعِ الحُسامِ المُهَنَّدِ

فأسرها يوسف في نفسه على مضض، قال تعالى: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ﴾ (يوسف: ٧٧) أي: أخفى يوسف مقالتهم هذه في نفسه وكتمها ﴿وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ (يوسف: ٧٧) أي: لم يظهرها، وقد كان قادراً أن يوقع عليهم عقاباً أليماً، فهو عزيز مصر وهم غرباء فقراء ضعفاء، ولكنه آثر أن يجيبهم سرًّا وحلماً:

﴿أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف: ٧٧)
أي: " بل أنتم شرّ منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء." (محمّد الصابوني)

لله درُّه عَفوًّا كريماً!!

◎ استعطاف إخوة يوسف:

في خضم هذا الموقف العصيب الذي حلَّ بالإخوة إذ بهم يتذكرون وعدهم لأبيهم، فازداد الموقف صعوبة، والأمر أزمة ووُعورة، فسرعان ما طلبوا مقابلة العزيز على عجل، وأن يدخلوا عليه من دون تأجيل أو أجل، ولمّا دخلوا على يوسف شرعوا يترققون له ويعطّفونه عليهم، فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (يوسف: ٧٨) أي: يأيها العزيز: خُذْ واحداً منا بدلاً من بنيامين، وعلّلوا سبب ذلك: بأنّ له أباً شيخاً كبيراً.(١)

---

(١) قصد أبناء يعقوب بوصف أبيهم شيخاً أي كبير السنّ، وأمّا قصدُهم بوصفه كبيراً أي كبير القدر، ولم يقصدوا بكبير التأكيد على أنه كبير السنّ؛ لأنّ ذلك واضح من قولهم: شيخاً.

وقفة: حمل خطاب إخوة يوسف هذا الكثير من آداب الكلام والخطاب، فقد بدأوه بذكر صفة طيبة ليوسف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ﴾، وذكروا ما يجلب الشفقة، وهو: ﴿إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا شَيۡخٗا كَبِيرٗا﴾، فقدموا الطلب بمقدّمة تحرك المشاعر، ثم عرضوا الطلب: ﴿فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ﴾، وختموا كلامهم بصيغة بها احترام، وتدفع للإجابة: ﴿إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾!

اِسْتَمَعَ يوسف إلى التماسهم المهذب هذا، ولكنه بالطبع ردّه، فقال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ﴾ (يوسف: ٧٩) أي: نعوذ بالله من أن نأخذ بريئاً بجرم غيره، مهما كانت الظروف، وإننا متى ارتكبنا ذلك نكون حقًّا من الظالمين.

ما الحكمة من إبقاء بنيامين في مصر؟

أُبقى بنيامين في مصر لأمرين:

أ. لتشديد المحنة على يعقوب.

ب. تحقيق ما قدره الله تعالى من قدوم يعقوب وأهله أجمعين إلى يوسف.

◎ **تشاور إخوة يوسف:**

نجحت خطة يوسف الذكيّة الربانيّة، وأبقى أخاه الصغير بنيامين عنده في مملكته القويّة، أمّا باقي الإخوة لمّا يئسوا من موافقة العزيز أن يأخذ أحدهم بدلاً من بنيامين ﴿خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ﴾ (يوسف: ٨٠) أي: اجتمعوا وأخذوا يتشاورون فيما بينهم بعيداً عن أعين الناس.

وإليكم موجز اجتماعهم هذا:

بدأ الاجتماع أكبرهم سنًّا أو رأياً بتذكيرهم بالوعد الذي قطعوه لأبيهم، ثم لامهم على تفريطهم في يوسف من قبل، فذكر لهم بأنّه قد اجتمع عليهم الأمران القبيحان منهم: تفريطهم في يوسف سابقاً، والآن عجزهم عن الإتيان ببنيامين لاحقاً، وتابع حَديثه معهم: بأنه لم يبقَ له وجه يقابل أباه به؛ لذا سوف يبقى في مصر حتى يأذن أبوه له بالعودة أو يقدّر الله عودته بأخيه، أو يقدّر سبحانه عودته بمفرده.

قال تعالى: ﴿قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾ (يوسف: ٨٠)

ونصحهم أن يخبروا أباهم بما وقع، حتى يكون لهم عذراً مقبولًا عنده، فقال: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ (يوسف: ٨١ – ٨٢)

أي: ارجعوا إلى أبيكم، وأخبره بحقيقة ما حدث، وبلغوه أنّ ابنك بنامين قد سرق، وهذا الذي نخبرك به هو الذي نعلمه، وما كنا نعلم حينما أعطيناك الميثاق أنّ بنيامين سيسرق، ودلّلوا على صدقكم بِمَنْ كان معكم في القافلة من غيركم، وبالقرية التي حدثت فيها الواقعة.

ولم يحكِ لنا القرآن بما أجابه إخوته المُؤْتَمِرون، ويبدو أنهم قد استقرّوا على هذا الرأي.

تساؤل: ما المراد بالقرية في قوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾؟

ذكر العلماء ثلاثة أقوال:

الأوّل: المراد بالقرية: أهل القرية، على أنه حذف للمضاف ونيابة المضاف إليه عنه.

الثاني: المراد بالقرية: أهل مصر، على أنّ تكون كلمة (القرية) مجازاً مرسلاً وعلاقته المحلّيّة، قال الدرويش: " والمعنى: أرسل إلى أهلها فاسألهم عن تفاصيل هذه القصّة."

(محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

الثالث: أنه حقيقة لا مجازَ فيه، ففي عادة العرب أن تطلق القرية على أهلها وسكانها، وذلك من سعة اللغة العربية وكثرة صيغها في الكلام، وليس ذلك ونحوه من باب المجاز المعروف في اصطلاح البلاغيين، وعليه فإن المراد بالقرية هنا سكان مصر حقيقة.

والصواب القول الثالث، والله أعلم.

◎ محنة يعقوب الثانية:

كانت محنة يعقوب الأولى ضياع يوسف، وها هي المحنة الثانية تحطُّ على رأسه، فعندما رجع أبناء يعقوب إلى فلسطين، عادوا بدون الابن الصغير والكبير، حيث بنيامين – الابن الصغير – قد صار محتجزاً في مصر، وأمّا الابن الكبير فقد رفض العودة خجلاً من مقابلة أبيه.

ولمّا سأل يعقوب عن ابنيه الصغير والكبير، أخبره أبناؤه بالمصاب الأليم، فلك أن تتخيّل حزنه المستديم، وقلبه المتوجع الكظيم!

وتحت وقع هذه النفسيّة الحزينة إذ به يتّهمهم في هذه القضية كما اتّهمهم في الأولى، فقال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ (يوسف: ٨٣) أي: " زيّنت وسهّلت لكم أنفسكم أمراً ومكيدة فنفذتموها، اتّهمهم بالتآمر على بنيامين." (محمّد الصابوني)

وتأمّل وفقك الله للحق –: يعقوب اتّهمهم بهذا الاتّهام رغم أنهم كانوا غير مفرطين في بنيامين، **فهل يأثم يعقوب في ذلك؟**

يعقوب لم يأثم في ذلك؛ لأنّهم قد جرى منهم ما جرى من قبل مع يوسف، فاتّهمهم بذلك جرياناً على ما وقع منهم سابقاً.

وقال لهم: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ﴾ (يوسف: ٨٣) أي: شأني صبر جميل، والصبر الجميل: صبر بلا شكوى لأحد إلا لله، قال القرطبي: " الواجب على كل مسلم إذا أُصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل، والرضى والتسليم لمجريه عليه، وهو العليم الحكيم، ويقتدي بنبي الله يعقوب وسائر النبيّين، صلوات الله عليهم أجمعين." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وقال: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (يوسف: ٨٣) أي: عسى أن يعيد الله إليّ أبنائي الثلاثة: يوسف، وبنيامين، والابن الكبير.

وفي هذا الكلام من يعقوب فيه إشارة واضحة لكمال إيمانه، وحسن صلته بربّه، وقوّة رجائه في كرم الله ولطفه، وكأنّ يعقوب بهذا الكلام يرى بنور الله الذي غرسه في قلبه ما لا يراه غيره ببصره وجوارحه!

لم يستطع يعقوب مجالسة أولاده أكثر من ذلك، وتركهم وهو يعاني من الكمد والألم ما يعاني ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ﴾ (يوسف: ٨٤) أي: " أعرض عن أولاده كراهة لما سمع منهم." (محمّد الصابوني)

وقال متأسفاً مكروباً: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ (يوسف: ٨٤) أي: يا لهفي وحسرتي على يوسف، " والأسف هو شدّة الحزن على ما فات، والنداء على معنى: تعال يا أسف، فإنه من أوقاتك." (القرطبي: ٢٠٠٢)

﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ﴾ (يوسف: ٨٤) أي: تحول سواد العين بياضًا ممّا أدى إلى ضعف بصره، حيث حلّت غشاوة على عينيه من شدّة البكاء، وقيل فقده بالكلّيّة ﴿فَهُوَ كَظِيمٞ﴾ (يوسف: ٨٤) أي صار ممتلئاً كمداً أو غيظاً، ولم يبح به لأحد.

تساؤل: الرَّزْءُ المذكور هنا هو فقد الابن الصغير والابن الكبير، فَلِمَ تَذَكّرْ يعقوب يوسف ولم يذكرهما؟

قال أبو السعود: " وإنما تأسف على يوسف مع أنّ الحادث مصيبة أخويه؛ لأنّ ذكر يوسف كان آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه، ولأنه كان واثقاً بحياتهما طامعاً في إيابهما، أمّا يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله وفضله."

(محمّد الصابوني)

وقال الرازي: " الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن في النفس، والأسى يبعث الأسى ويثير الأحزان، قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهُ إنّ الأَسى يَبْعَثُ الأَسى * * * ذَروني فَهَذا كُلُّهُ قَبْرُ مالِكِ"[١]

(محمّد الصابوني)

◎ تَأَلُّمُ أبناء يعقوب على أبيهم:

زاد ألم الوجد والفراق على يعقوب، حتى رقَّ أبناؤه عليه رِقّةً شديدةً، فقالوا له على سبيل الرحمة والرأفة به، والحرص عليه: ﴿تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوۡ تَكُونَ مِنَ ٱلۡهَٰلِكِينَ ٨٥﴾ (يوسف: ٨٥) أي: والله لا تزال تذكر

---

(١) قائل البيت هو متمم بن نويرة.

يوسف حتى ينحل جسدُك، وتضعف قوّتُك، وتصبح مشرفًا على الموت، فلو رفقت بنفسك كان ذلك أولى بك.(١)

سمع يعقوب النبي الكريم هذا الجزع من أبنائه، فعلّم أبناءه درساً عظيماً في الإيمان بالقضاء والقدر – رغم حالة النفسية المضطربة –، فعلّم أبناءه بالتلويح أنّ الشكوى لا تصلح إلّا أن تكون لله، ولا تصلح إلّا له حالاً وإخباراً، فقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦) أي: قال لبنيه: لستُ أشكو إليكم ولا لأحد من الناس بثّي وحزني، وإنما أشكو ذلك إلى الله – عزّ وجلّ – وحده، والبثّ: أي الهمّ وشدّة الحزن.

وتأمّل: جمع يعقوب بين كلمتين مترادفتين هما: (بثّي وحزني)، حيث قد حصل بمجموع المترادفين (بثّي وحزني) معنى لا يوجد عند انفرادهما.

---

(١) لقد جاء أبناء يعقوب في قولهم السابق بلفظة تعد الأنسب في بابها، وهي: (تفتأ)، فلم يقولوا: تصبح، أو تصير، أو غيرهما، حيث أفادت (تفتأ) تفخيم الخطب، وتهويل ما خيف على يعقوب – عليه السلام – من دوام حزنه وطول أسفه، وحذفوا منها حرف النفي.

وكذلك جاءوا بلفظة تُعدّ الأغرب في ألفاظ الهلاك وهي (حرضاً)، وحُسْنُ اختيار هذه الكلمات ونحوها يعدّ من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم.

وقال يعقوب: ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ (يوسف: ٨٦) أي: " وأعلم أنّ الله سيجعل لي ممّا أنا فيه فرجاً ومخرجاً، وأعلم أنّ رؤيا يوسف لا بدّ أن تقع، ولا بدّ أنّ أسجد له وأنتم حسب ما رأى." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

بهذه الكلمات الخاشعات الواثقات بوعد الله قابل يعقوب النبي الكريم جزع أبنائه عليه!

ثم قال لهم بثقة المؤمن المطمئن لوعد الله: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ (يوسف: ٨٧) أي: اذهبوا إلى المكان الذي جئتم منه، فالتمسوا يوسف، وتعرفوا على خبره وخبر أخيه بحواسكم، والتحسّس هو طلب الشيء بالحواس بدقّة وحكمة وصبر على البحث.

وقول يعقوب السابق دليل على أنه كان متيقناً من حياة يوسف، وكيف علم ذلك؟ الأقرب أنه علمه وحياً.

وفي قول يعقوب السابق أنموذج بديع في التفكير السليم، حيث أخذ يعقوب يفكر في حلّ مشكلته، ولم يفكر في نفس مشكلته، فكما يقال: الإنسان العاقل الحكيم هو مَنْ يفكر في حلّ المشكلة، لا الذي يفكر في نفس المشكلة.

استراحة لغوية: ما الفرق بين التحسّس والتجسّس؟

ذُكر أنّ معناهما واحد، وقال ابن كثير: " التحسّس يكون في الخير، والتجسّس يكون في الشرّ." (ابن كثير: ١٩٨٧)

والصواب: أنّ التحسّس يستعمل في الخير والشرّ، فمن استعماله في الخير قول يعقوب: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ (يوسف: ٨٧)، ومن استعماله في الشرّ قوله صلى الله عليه وسلم: " **لا تحسّسوا**."

(رواه البخاري: ٦٠٦٦)

وحذرهم: ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (يوسف: ٨٧) أي: " لا تقطعوا رجاءكم وأملكم من الله فيما ترمونه وتقصدونه، فإنه لا يقطع الرجاء، ولا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون."

(ابن كثير: ١٩٨٧)

وقال السعدي: " وأنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وروح الله أي: فرج الله، أو رحمة الله.

قال الدرويش: " وأصل الروح: استراحة القلب من غمّه، والمعنى: لا تقنطوا من رحمة تأتيكم من الله."

(محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

لله درُّك يا يعقوب! وأنتَ في هذه الحالة من الكمد والحزن تعلّم أبناءك هذا الدرس في الرضى بقضاء الله وقدره، تعلّمهم الأمل وعدم اليأس والإيجابيّة!

وفي هذه الآية دليل على أن القنوط من رحمة الله من الكبائر.

◎ اللقاء الثاني بين يوسف وإخوته:

امتثال أبناء يعقوب أمر أبيهم، فرجعوا إلى مصر للمرّة الثالثة متحسّسين خبر إخوانهم، ولمّا دخلوا على يوسف وهم لا يزالون له منكرين، ترققوا له أن يتصدق عليهم ببيعهم طعام مقابل الثمن الرديء الذي معهم.

فقالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف: ٨٨) أي: أيها العزيز أصابتنا كربة شديدة وعسرة عظيمة بسبب القحط الشديد، وجئنا ببضاعة مزجاة (أي: رديئة يرفضها التجار)، فهل تقبلها منا؟ وتتمُّ لنا بها الكيل؟ وسيجزيك الله عن ذلك خير الجزاء.

قال القرطبي: " وفي هذا دليل على جواز الشكوى عند الضرر، أي الجوع، بل واجب عليه إذا خاف على نفسه الضرر من الفقر وغيره أن يبدي حالته إلى مَنْ يرجو منه النفع، كما هو واجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه، ولا يكون ذلك قدحاً في التوكل، وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط، والصبر والتجلد في النوائب أحسن، والتعفف عن المسألة أفضل، وأحسن الكلام في الشكوى بسؤال المولى زوال البلوى، وذلك قول يعقوب: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦)" (القرطبي: ٢٠٠٢)

تساؤل: لِمَ عدل إخوة يوسف عن وصية أبيهم إلى طلب الطعام؟

الجواب: إنّ المتحسّسين يتوسلون إلى مطلبهم بجميع الطرائق الخفية؛ لذا ذكروا أنهم جاءوا لطلب الطعام، فإذا رأوا رقّة من يوسف ورأفة بحالهم تشجعوا، وسألوه إطلاق سراح أخيه الصغير بنيامين، وهذا من باب تقديم الوسائل قبل الطلب، وكأنّ لسان حالهم يقول: نجربّه في ذكر هذه الأمور فإنْ رقَّ قلبُه لنا ذكرنا مقصدنا وإلّا سكتنا.

◎ يوسف يكشف عن نفسه أمام إخوته:

لمّا بلغ الأمر بإخوة يوسف إلى هذا الحدّ من الاسترحام والضيق والانكسار، أدركت يوسف رقّة شديدة بهم، وعندئذ حسر يوسف عن نفسه الشريفة، وكشف اللثام عن وجهه الكريم، وأعلن عن شخصيته الحقيقيّة، فقال: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ (يوسف: ٨٩) أي: " قال يوسف: هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه حال شبابكم وطيشكم؟ والغرض تعظيم الواقعة كأنه يقول: ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف! وما أقبح ما أقدمتم عليه!" (محمّد الصابوني)

ورغم ما يحمله كلام يوسف لإخوته من عتاب ولوم إلّا أنه لم يخرج عن اللوم الخفيف والعتاب الرقيق، والذي أشبه باعتذار عمّا فعلوه معه، فكأنه أخذ يتلمس لهم العذر، حيث بيّن أن ما فعلوه كان في وقت جهلهم وقصور عقلهم!

وفي الوقت نفسه قاله نصحاً لهم، وإرشادًا إلى التوبة، وشفقة عليهم.

ولله درُّك يا يوسف نبيًّا كريماً متسامحاً!! ففي هذا الحال، وهم أذلاء صاغرون وأنت عزيز مكين، لم تخاطبهم خطاب المتكبر المتشفي المنتقم، إنما تخاطبهم خطاب الناصح المشفق الكريم.

اندهش إخوة يوسف كل الاندهاش، وأخذهم كل العجب، فقد تردّدوا عليه مرّات عديدات، وفي كل مرّة لم يعرفوه، فقالوا متعجبين: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ (يوسف: ٩٠) أي: أأنت يوسف بالفعل صدقاً لا كذباً؟! والاستفهام يدلّ على الاستعظام.

قال يوسف: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ (يوسف: ٩٠) أي: " قال يوسف: أنا يوسف الذي صنعتم به ما صنعتم، وسلف في أمركم ما فرطتم، وقوله: ﴿وَهَٰذَآ أَخِي﴾ تأكيداً لما قال، وتنبيهاً على ما كانوا اضمروا لهما من الحسد، وعملوا في أمرهما في الاحتيال." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

﴿قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ﴾ (يوسف: ٩٠) أي: " مَنّ علينا بالخلاص من البلاء، والاجتماع بعد الافتراق، والعزّة بعد الذلّة." (محمّد الصابوني)

ثم ختم كلامه معهم بخاتمة كلام الأنبياء الأتقياء: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٩٠) أي: إنه مَنْ يتق الله ويصبر على الابتلاء فإنّ الله لا يضيع أجره، قال البيضاوي: " ووضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أنّ المُحسن مَنْ جمع بين التقوى والصبر." (محمّد الصابوني)

وفي الآية إشارة لطيفة على أنّ الإيمان والتقوى والصبر يحصل بهم العبد على التمكين في الدنيا، مع ما يُدخر له في الآخرة من الأجر الجزيل، فأنعم بها من صفات!!

عندما انكشف أمام إخوة يوسف حقيقة شخصية عزيز مصر لم يملكوا إلّا الإذعان ليوسف، والاعتراف له بفضله عليهم، وانتابهم الخزي والخجل بسبب ما فعلوه واقترفوه، فقالوا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ (يوسف: ٩١) قال ابن كثير: " قالوا ذلك معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلق والخُلق، والسعة والمُلك، وأقرّوا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقّه." (ابن كثير: ١٩٨٧)

وتضمن قولهم: ﴿وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ طلب العفو منه أوّلاً، وبه غاية الاعتراف والإقرار منهم بالجرم الحاصل منهم إلى يوسف ثانياً.

◎ يوسف يعفو عن إخوته:

سمع يوسف اعتذار إخوته، فتظهر جمال أخلاق الأنبياء، وصفاء الأولياء، فيعفو عنهم الكريم يوسف قائلًا: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ (يوسف: ٩٢) أي: لا لوم اليوم عليكم ولا عقاب بل أصفح وأعفو، وليس التقييد بـ (اليوم) يفيد أن التقريع

ثابت في غيره، بل المراد نفيه عنهم في كل ما مضى من الزمان؛ لأنّ الإنسان إذا لم يوبخ صاحبه في أوّل لقاء معه على أخطائه، فترك ذلك بعد اللقاء الأوّل أولى، ثم زادهم خيراً بأن دعا لهم بالمغفرة، فقال: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٩٢﴾[1] (يوسف: ٩٢) أي: اللهمَّ اغفر لهم وأرحمهم.

قال السعدي: " فسمح لهم سماحاً تامًّا، من غير تعيير لهم على الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلّا من خوّاص الخلق وخيار المصطفين." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

ويذكرنا موقف يوسف – عليه السلام – مع إخوته بموقف الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع قومه يوم فتح مكة، فعن أبي هريرة أنّ الرسول خاطب أهل مكة بعد فتحها قائلاً لهم: " **ما تقولونَ، وما تظنّونَ؟** " قالوا نقول: ابن أخ، وابن عمّ، حليم، رحيم، **فقال صلى الله عليه وسلم:** " **أقولُ كما قال يوسفُ: لا**

---

(١) أتى يوسف في قوله هذا بجملة خبرية بدلاً من صريح الدعاء، والسرُّ في ذلك: أن الجملة الخبرية أبلغ من صريح الدعاء، وزيادة في الخير والتكرّم.

تثريبَ عليكم اليوم، يغفرُ لكم، وهو أرحمُ الراحمين." (رواه البيهقي، وهو حَديثٌ حسنٌ)

◎ **قميص يوسف:**

عفا يوسف عن إخوته عفواً كريمًا تامًّا، ثم أمرهم أن يأخذوا قميصه، وهو الذي يلي جسده، فيضعوه على وجه أبيه، فإنه سيعود بصيرًا، بعدما كان ضعيف البصر أو ضريراً، وذلك بإذن الله وقدرته، وهذا من خوارق العادات، ودلائل النبوات، وأكبر المعجزات، قال يوسف: ﴿ٱذۡهَبُواْ بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلۡقُوهُ عَلَىٰ وَجۡهِ أَبِي يَأۡتِ بَصِيرٗا﴾ (يوسف: ٩٣)

ثم أمرهم: ﴿وَأۡتُونِي بِأَهۡلِكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ (يوسف: ٩٣)

أي: تحملوا أهلكم جميعاً، وأتوني بهم إلى ديار مصر، حيث الدعة والراحة والرفاهيّة، وجمع الشمل بعد الاختلاف والفرقة.

وتأمّل: قميص ملطخ بالدم ابيضت عين يعقوب بسببه، وقميص آخر أعاد البصر إليه؛ لنعلم أنّ القميص في حدّ ذاته لا تأثيرَ له، وإنما هو سبب لإرادة الله تعالى.

زيادة وتفصيل:

١. **كيف عرف يوسف أنّ أباه قد ذهب بصره؟**

الجواب: قال الطبري: " ذُكر أنّ يوسف لما عرّف نفسه لإخوته سألهم عن أبيهم، فقالوا : ذهب بصره من الحزن، فعند ذلك أعطاهم قميصه." (محمّد الصابوني)

وما ذكره الطبري – رحمه الله – محتمل لكن يعوزه الدليل الشرعي الصحيح.

٢. **ما وجه الجمع بين إلقاء القميص على وجه يعقوب وعودة بصره إليه؟**

قال السعدي: " لأنّ كل داء يداوى بضده، فهذا القميص – لما كان فيه ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما به الله عليم – أراد أن يشّمه، فترجع إليه روحه، وتتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، ولله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد أطلع يوسف على هذا الأمر." (عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

٣. **من أين عرف يوسف أنّ إلقاء القميص على وجه أبيه يعقوب يوجب قوّة البصر؟**

قال المحقّقون: عرف ذلك بوحي من الله تعالى، ولولا الوحي لما عرف ذلك.

◙ يعقوب يشعر بريح يوسف:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ﴾ (يوسف: ٩٤) أي: لمّا خرجت القافلة من مصر إلى الشام قافلة، وحطت رحالها في فلسطين عائدة، إذ بيعقوب أحسَّ بإحساس الأب بريح يوسف تهبُّ قادمة، فقال لمن بقي عنده من أبنائه وأحفاده ولمن حوله: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ (يوسف: ٩٤) أي: قال يعقوب: إني لأجد ريح يوسف، وأغلب المفسرين قالوا: إنه شمَّ رائحة يوسف، ويحتمل أنه شعر بريحه، ولمّا كان هذا الكلام أشبه بالمستحيل، جاء يعقوب في كلامه بمؤكدين (إنّ واللام)؛ ليبيّن لهم أنه أمر خارق للعادة، وكرامة له، وقال: ﴿لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ (يوسف: ٩٤) أي: حتى لا تقولوا إنّ هذا القول منك بسبب الخرف وكبر السنّ، وجواب لولا محذوف تقديره: لأخبرتكم أنه حيٌّ.

يا للعجب!! فإنّ الله أوصل ريح يوسف عند انقضاء مدّة المحنة، ومجيء وقت الراحة والفرحة من المكان البعيد؛ ليدلّ ذلك على أنّ كل سهل فهو في زمان المحنة صعبٌ، وكل صعب فهو في زمان المنحة سهلٌ.

تساؤل: كيف وصلت ريح قميص يوسف إلى يعقوب عليهما السلام؟

قال ابن عباس: " هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف، وبينهما مسيرة ثمان ليال." (محمّد الصابوني)

وهذا القول يبدو أنه مأخوذ من الإسرائيليّات، **والصواب:** أنه تعالى أوصل تلك الرائحة إلى يعقوب على سبيل إظهار المعجزات، والأقرب أنها معجزة ليعقوب.

قال الإمام مالك: أوصل الله ريح قميص يوسف إلى يعقوب، كما أوصل عرش بلقيس إلى سُليمان، قبل أن يرتد إلى سُليمان طرفه.

◎ الشفقة على يعقوب:

عندما سمع من حول يعقوب مقولته أشفقوا عليه، ولاموه على تذكر ابنه يوسف المفقود، وقالوا له كلمة غليظة: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ (يوسف: ٩٥) أي: " قال (من بقي من أبنائه) وحفدته ومن عنده: والله إنك لفي خطأ وذهاب عن طريق الصواب (المستقيم)، بإفراطك في محبّة يوسف، ولهجتك بذكره، وإرجائك للقائه، وقال المفسرون: وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أنّ يوسف قد مات." (محمّد الصابوني)

قال حبنكة: " في الآية تورية، فالمعنى القريب الذي أراده بعض أبناء يعقوب الإيهام به: هو أنه ما زال ضالًّا، طامعاً بعد نيف وثلاثين سنة من غياب يوسف في أن يعود إليه، أو يلتقي به، وضالًّا في شغل نفسه بالحزن عليه حتى يكون حرضاً (أي: شديد المرض) أو يكون من الهالكين.

والمعنى الثاني البعيد الذي قصدوه: هو أنه ما زال ضالًّا في إيثاره يوسف وشقيقه على سائر بنيه، وهذا المعنى الذي كانوا قد ذكروه قبل أن يلقوا يوسف في غيابة الجبّ، وقد أبانه الله بقوله: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (يوسف: ٨)"

(عبد الرحمن حبنكة: ١٩٩٦)

◎ عودة بصر يعقوب إليه:

وأثناء هذا اللجاج الدائر بين يعقوب ومن حوله إذ بالشخص الذي سماه القرآن بالبشير قد حضر، حاملًا معه القميص، وبمجرد أن ألقى البشير هذا القميص على وجه يعقوب عاد إليه بصره من فوره بعدما كان ضعف بصره أو ذهب، وذلك وسط ذهول الحاضرين ودهشتهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ

عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾ (يوسف : ٩٦) أي: لمّا ألقى البشير قميص يوسف على وجه يعقوب عاد بصيراً.(١)

عندها توجه يعقوب لمن حوله باللوم والتأنيب، قائلاً: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ (يوسف: ٩٦) أي: ألم أخبركم بأني أعلم من الله ما تجهلون بحياة يوسف، وأنّ الله سيجمع شملي بيوسف، وسيقرّ عيني به، وسيريني فيه ومنه ما يسرني.

مَنْ كان هذا البشير؟

ذكر المفسرون أقوالاً عدّة، منها:

قال القرطبي: " هو شمعون" (القرطبي: ٢٠٠٢)، بينما قال ابن كثير: " وقيل: هو يهوذا وإنما جاء به لأنه هو الذي جاء

---

(١) يذكر النحاة: أنّ كلمة (أنْ) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗا﴾ (يوسف : ٩٦) زائدة، وليس ما ذكروه صحيحاً، قال السبت: " وإنما المراد بها تصوير الفصل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف وبين مجيئه، لبعد ما كان بين يوسف وأبيه عليهما السلام، وأنّ ذلك كأنه كان منتظراً بقلق واضطراب، توكدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره غنّة هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي (أنْ) في قوله (أنْ جاء)." (خالد السبت: ١٤٢١)

بالقميص، وهو ملطخ بدم كذب، فأحبّ أن يغسل ذلك بهذا، فجاء بالقميص فألقاه على وجه أبيه فرجع بصيراً." (ابن كثير: ١٩٨٧)

ويبدو أنّ هذا مأخوذٌ من الإسرائيليّات.

والصواب: معنى البريد لغة: الرسول الذي يحمل الرسائل، فعلى ذلك يكون معنى البشير في الآية: الرسول الذي كان يحمل القميص، قال ابن كثير: " قال ابن عباس: البشير هو البريد." (ابن كثير: ١٩٨٧)

ولم يحدّد النصّ القرآني ولا السنّة الصحيحة مَنْ كان هذا الرسول الذي كان يحمل القميص؟! فيحتمل ما ذُكر، ويحتمل غيره؛ لذا ردّ علم ذلك إلى الله أصوب.

◎ توبة إخوة يوسف:

شاهد إخوة يوسف رجوع بصر أبيهم، وسمعوا مقالته لهم، فتابوا إلى ربّهم، وطلبوا من أبيهم أن يستغفر الله لهم عمّا بدر منهم تجاهه وتجاه أخيهم يوسف، فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ (يوسف: ٩٧) فأجاب طلبهم: ﴿سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٩٨﴾ (يوسف: ٩٨)

ولِمَ وعد يعقوب أبناءه بالاستغفار ولم يستغفر لهم حالًا؟

قيل: إنه استغفر لهم في الحال، وقوله: (سأستغفر لكم) أي: معناه: أني أداوم على هذا الاستغفار في الزمان المستقبل. وهذا القول بعيد والله أعلم.

وقيل: أراد أن يستغفر لهم في وقت السحر؛ لأنّ هذا الوقت أوفق الأوقات لرجاء الإجابات.

أو: أراد أن يوافق استغفاره ليلة الجمعة؛ لأنَّها أوفق الأوقات للإجابة.

أو: أراد أن يعرف هل تابوا في الحقيقة أم لا؟ وهل حصلت توبتهم مقرونة بالإخلاص التام أم لا؟

وأقولُ (إبراهيم): لا مانع من أن تكون كل هذه الأشياء أرادها يعقوب، ويحتمل أراد غيرها، والله أعلم لم أخر يعقوب استغفاره لأبنائه؟

وهكذا صوّرت لنا الآيات الكريمات بأسلوبها الشائق البليغ ما دار بين يوسف وإخوته، وكذلك ما دار بين يعقوب وأبنائه في هذا اللقاء المثير الحافل بالمفاجآت والبشارات، والتي لم تنته عند هذا الحدّ، بل كانت هناك المزيد من المفاجآت والبشارات التي حقّقت رؤيا يوسف وهو صغير، وتأويل يعقوب لها الصحيح، **فما هذه المفاجآت والبشارات؟!**

◎ التئام شمل آل يعقوب:

أوّل هذه البشارات كان التئام شمل آل يعقوب، حيث لم يمضِ وقت طويل حتى التأم شمل يعقوب بيوسف وبنيامين وابنه الكبير الذي بقي في مصر، فقد قدم يعقوب بأهله أجمعين بلاد مصر، فالتقى الجميع على أمر قد قُدّر، وعندما دخلوا على يوسف ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيۡهِ أَبَوَيۡهِ وَقَالَ ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ (يوسف: ٩٩) أي: ضمّ يوسف إليه أبويه، وقال: ادخلوا مصر آمنين من كل مخوف مكروه، وقوله: (إن شاء الله) إنما قاله تبركاً وتيمناً.

تصحيح: ذكر المفسرون: أن المراد بأبويه: أبوه وخالته؛ لأنّ أمّه قد ماتت وهو صغير، بينما الصواب: قال ابن كثير: " قال محمّد بن إسحاق وابن جرير: كان أبوه وأمّه يعيشان، وأنه لم يقم دليل على موت أمّه، وظاهر القرآن يدلّ على حياتهما."

(ابن كثير: ٢٠٠٢)

◎ **السجود ليوسف:**

أجلس يوسف أبويه معه على كرسي العرش، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ (يوسف: ١٠٠)، وعند ذلك سجد الأبوان والإخوة الأحد عشر ليوسف، قال تعالى: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ (يوسف: ١٠٠)

ما المراد بهذا السجود؟

اتّفاق العلماء على: أنّ هذا السجود – على أي وجه كان – لم يكن عبادة، ثم اختلفوا في المراد منه على أقوال:

- قيل: إنهم لم يسجدوا أساساً ليوسف، وإنما سجدوا لله وكان يوسف كالقبلة لهم. وهذا القول بعيد؛ لأنّ الله تعالى قال في بداية السورة: ﴿رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ (يوسف: ٤)
- وذكر الثوري والضحّاك وغيرهما: " كان سجوداً كالسجود المعهود عندنا، وهو تحيتهم." (القرطبي: ٢٠٠٢)
- وقيل: " لم يكن سجوداً، لكنه كانت سُنّة كانت فيهم، يومئون برؤوسهم إيماءً، كذلك كانت تحيتهم." (القرطبي: ٢٠٠٢)
- وقيل: كان انحناء كالركوع، ولم يكن خُروراً على الأرض، وهكذا كان سلامهم بالتكفي والانحناء؛ **وهذا القول هو الصحيح إن شاء الله لما يأتي:**

كان هذا هو المعمول به في الديار المصرية وعند العجم، حتى جاء الإسلام وحرّمه، فقد جاء في الحَديث عن أنس بن مالك: " **قال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، الرجلُ منا يلقى أخاهُ أو صديقَهُ، أينحني له؟ قال: لا، قال: أفيلتزِمَهُ ويقبِّلُه؟ قال: لا، قال: أفيأخذُ بيده ويصافحُهُ، قال: نعم.**" (رواه الترمذي: (٢٧٢٨)، وابن ماجه: (٣٧٠٢)، وأحمد: (١٣٠٤٤))

قال الكحلوت: " والنهي في الإسلام عن العناق والتقبيل لغير المسافر، فقد جاء صريحاً في حَديث آخر، قال أنس رضي الله عنه: " **كان أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم، إذا تلاقَوْا تصافَحُوا، وإذا قَدِموا من سفرٍ تعانَقوا.**"[١]

(عدنان الكحلوت: ٢٠٠١)

لطيفة: ما الحكمة من هذا السجود؟

ذُكر: أنّ الحكمة من هذا السجود كان تحية وكرامة ليوسف عليه السلام.

وذُكر: أنّ السجود كان لحكمة خفية لا يعلمها إلّا الله سبحانه، كحكمة سجود الملائكة لآدم عليه السلام، والله أعلم.

(١) رواه الطبراني: (٩٧)، وحسنه الألباني في الصحيحة: (١٦٠)

الحاصل: لمّا شاهد يوسف هذه الكرامة، قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ (يوسف: ١٠٠) أي: قال يا أبت: هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها وأنا صغير من قبل ﴿قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗا﴾ (يوسف: ١٠٠) أي: حقّقها ربّي فجاءت كما رأيتها في منامي، وكلام يوسف السابق يحمل عظيم الشكر لله.

◎ قد أحسن الله بي:

أكمل يوسف شكره لله بأن لهج لسانه قائلًا: ﴿وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ﴾ (يوسف: ١٠٠) أي: أنعم عليّ بإخراجي من السجن، وجعلني نافذ الكلمة في الديار المصرية، والباء في (بي) للملابسة، أي: جعل إحسانه تعالى ملازمًا لي.

﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ﴾ (يوسف: ١٠٠) أي: جاء بأهلي من البادية، وجمع شمل أسرتي بعد الفرقة، والبدو: هو البادية: وهو البسيط من الأرض الذي يبدو فيه الشخص من بعيد.

وتأمّل: أسند يوسف المجيء إلى الله تعالى؛ لأنّ المجيء كان نعمة على يوسف وإخوته، فناسب ذلك أن ينسب الخير إلى الله تعالى.

وكيف كان المجيء نعمة على يوسف وإخوته؟

كان المجيء نعمة على يوسف لالتئامه بأسرته بعد الفراق، وأمّا كون المجيء نعمة في حقّ إخوته، حيث إن إخوته يوسف كانوا يعيشون في بادية، فانتقلوا إلى مصر حيث الحضارة والمدنيّة والرفاهيّة.

وأردف يوسف قائلًا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ﴾ (يوسف: ١٠٠) أي: من بعد أن أفسد الشيطان ما بيني وبين إخوتي بالإغواء، ولمّا كان في هذا القول لوم، وإن كان لطيفًا، فناسب أن يأتي بلفظ (بعد) والتي تقتضي أن ذلك شيء انقضى أثره وانتهى.

وقال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ (يوسف: ١٠٠) أي: إنّ ربّي إذا أراد أمراً هيأ له أسباباً ليست في مقدور البشر، وإنما هي بقدرته وحكمته لمصالح عباده.

قال أبو حيان: " وذكر هذا القدر من أمر إخوته،؛ لأنّ النعمة إذا جاءت إثر بلاء وشدّة كانت أحسن موقعاً." (محمّد الصابوني)

لطائف في خلق يوسف السامي:

١. **قال يوسف: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ﴾ ولم يقل: وقد أحسن بكم:**

وهذا من أدبه، حيث نسب إحسان الله تعالى إليه وليس لهم، مع أنه واقع عليهم أكثر.

٢. **ذكر يوسف نعمة الله عليه في إخراجه من السجن دون إخراجه من الجبّ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ﴾:**

قال الأنصاري: " لأنّ مصيبة السجن كانت عنده أعظم، لطول مدّتها، ولمصاحبته الأوباش وأعداء الدين فيه، بخلاف مصيبة الجبّ، لقصر مدتها.

أو: لأنّ في ذكر الجبّ توبيخاً وتقريعاً لإخوته، بعد قوله: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ (يوسف: ٩٢)" (زكريا الأنصاري: ٢٠٠٣)

٣. **وقال: ﴿وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ﴾ (يوسف: ١٠٠) ولم يقل وجاء بكم من الجوع والنصب:**

وهذا من خلقه العالي، فلم ينسبهم إلى ما يسوء الإنسان الانتساب إليه حتى وإن كان واقعاً.

٤. **وقال: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ﴾ (يوسف: ١٠٠) ولم يقل: (من بعد أن نزغ الشيطان إخوتي):**

وهذا من أدبه، حيث جعل الذنب والجهل كأنهما صدرا من الطرفين، بالرغم من أنهما صدرا منهم.

◎ يوسف يختار الرفيق الاعلى:

رأى يوسف – عليه السلام – أنّ النعمة قد تمّت، وأنّ المنحة قد اكتملت، وما بعد التمام إلّا النقصان، فعرف أنّ هذه الدار لا يقرّ بها قرار، وإنّ كل شيء فيها ومن عليها فانّ، فعند ذلك أثنى على ربّه بما هو أَهْلُهُ، واعترف له بعظيم فضله ومنّه، وسأله أنّ يتوفاه على الإسلام، وإلحاقه بالصالحين، وهكذا يختم القرآن قصّة يوسف مع أبيه وإخوانه وغيرهم ممّن عاشرهم والتقى بهم بدعاء جامع يدلّ على أن يوسف لم يشغله الجاه أو السلطان عن طاعة ربّ الأرض والأكوان، وتذكر الآخرة، وهذا شأن المصطفين الأخيار في كل زمان ومكان، فقال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ (يوسف:١٠١)

قال ابن كثير: " هذا دعاء من يوسف الصدّيق، دعا به ربّه – عزّ وجلّ – لمّا تمّت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه بالنبوّة والمُلك، سأل ربّه – عزّ وجلّ – أن يتوفاه

مسلماً حين يتوفاه، وأن يلحقه بالصالحين، وهم إخوانه من النبيّين والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين."

(ابن كثير: ١٩٨٧)

زيادة وتفصيل:

١. **متى قال يوسف هذا الدعاء؟**

ذُكر: أنه قاله حال احتضاره.

وذُكر: أنه قاله في حال حياته، والله أعلم بالصواب.

٢. **الأنبياء والرسل – عليهم السلام – يعلمون لا محالة أنهم يموتون على الإسلام، فهل دعاء يوسف** ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ **تحصيل حاصل وأنه لا يجوز؟**

أحسن ما قيل جواباً على ذلك:

الإسلام له معنيان: المعنى الأوّل: بمعنى الاستسلام والخضوع لله، والمعنى الثاني: بمعنى الإسلام الذي هو ضد الكفر، ويوسف عندما سأل ربّه الموت على الإسلام سأله بمعناه الأوّل، وهو الخضوع لحكم الله وقدره، فإنّ كمال حال المسلم أن يستسلم لحكم الله تعالى على وجه يستقرّ قلبه على ذلك الإسلام الذي هو بمعنى الخضوع لله، ويرضى بقضاء الله وقدره، ويكون مطمئن النفس، منشرح الصدر، منفسح القلب،

وهذه الحالة زائدة على الإسلام الذي هو ضدّ الكفر، وهذا الخضوع إذا مات الإنسان عليه أمر محبوب ومطلوب.

٣. **يوسف من أكابر الأنبياء عليهم السلام، ومع ذلك قد طلب أن يكون من الصالحين، والصلاح أوّل درجات المؤمنين، فهل الواصل إلى الغاية يليق به أن يطلب البداية؟**

قال المفسرون: قول يوسف: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ يقصد بالصالحين: آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وسائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، والمعنى: ألحقني بهم في ثوابهم ومرّاتبهم ودرجاتهم.

◎ بعثة يوسف:

يوسف الكريم نبي من كبار أنبياء بني إسرائيل، وقد دعا إلى الله بصدق وإخلاص وحماسة إلى الدين، واستغل كل فرصة لِبَثّ دعوته وتبليغها، كما فعل مع صاحبي السجن، وبظهور يوسف – عليه السلام – تبدأ مرحلة جديدة في الدعوة إلى عبادة الله الواحد الديّان صار مركزها مصر بدلاً من فلسطين.

ولكن متى أُرسل يوسف عليه السلام؟

ذكر أنه أُرسل في فترة مكثه في الجبّ، لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ (يوسف: ١٥)، وهذا القول بعيد.

قال هراس: " ليس هناك في الواقع نصًّا يحدّد لنا بدء إرساله، وأمّا قوله تعالى في أوّل السورة بعدما ألقاه إخوته في غيابة الجبّ: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ (يوسف: ١٥)، فنحن نستبعد أن يكون هذا وحي نبوة؛ لأنه في هذا الوقت كان غلامًا حَدَثاً لم يبلغ الحلم، وإن كان ناهز، فلعلّ هذا الوحي كان من قبيل الإلهام، كما في وحي الله لأمّ موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ (القصص: ٧) أو لعلّه من قبيل الإرهاص الذي يسمع فيه النبي قبل النبوّة الكلمة أو الكلمتين من غير أن يرى شخصاً، كما كان يحدث لنبيّنا صلى الله عليه وسلم." (محمّد هراس)

والذي يترجح: أن يوسف – عليه السلام – قد أرسل إليه في الفترة التي قضاها في السجن.

قال هراس: " فإنّ وجوده في السجن أفرغ لقلبه، فيكون أكثر تهيئاً لتلقي الرسالة، كما حصل لنبيّنا – صلى الله عليه وسلم – قبيل البعثة من حبّه الخلاء وتعبده في الغار، ولأنّ في إكرامه بالرسالة في ذلك الوقت تعويضاً له عمّا يلقاه في سجنه من الوحشة والقسوة؛ ولأنّ كلامه مع صاحبي السجن، وتفسيره للرؤيا،

ودعوتهما للتوحيد، وقوله لهما: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ﴾، يكاد يكون صريحاً في الدلالة على حصول النبوّة له." (محمّد هراس)

◎ دعوة يوسف للمصريين:

ذكرنا أن يوسف كان نبيًّا من كبار أنبياء بني إسرائيل، وقد أرسل إليهم قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾ (غافر: ٣٤) ولكن دعوته كان محلّها – بخلاف مَنْ سبقه من أنبياء بني إسرائيل – في مصر وليس فلسطين، فكانت دعوته لبني إسرائيل والمصريين معًا.

وكما هو معلوم من دعوة جميع أنبياء والمرسلين، أنهم كانوا أوّل ما يدعون أقوامهم إليه هو التوحيد؛ لذا كان أوّل ما دعا يوسف بني إسرائيل وأهل مصر إليه هو توحيد الله وإفراده بالعبادة، لا سيما كانت عقيدة المصريين آنذاك عقيدة وثنيّة[(١)]، فقد اتّخذ

---

(١) بالرغم من أن عقيدة المصريين آنذاك كانت وثنيّة إلّا أنها كان بها بقايا دين، وإن كانوا وثنيين يعبدون الأصنام، فهم يعرفون الله تعالى، ويسألونه، ويظهر ذلك من قول العزيز لامرأته: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ﴾ (يوسف: ٢٩)، قال الكحلوت: " فإنهم يعلمون أنّ الذي يغفر=

المصريين آلهة متعددة كل منها إله قائم بذاته له أوصافه وخصائصه، وإن كان هذا لا يمنع من اعتقادهم بإله واحد كبير هو عظيم هذه الآلهة.

وكيف حدث هذا التعدد عند المصريين في الآلهة؟

قال هراس: " إنّ الناس حين ارتبكت عقولهم، وشلّت أفكارهم، وتساءلوا فيما بينهم: هل يمكن لإله واحد أن يدبر هذا المُلك الشاسع بمفرده؟ فأجابهم الكهنة: بأنّ ذلك الإله القادر خلق آلهة أخرى لكل غرض إله." (محمّد هراس)

الحاصل: قد دعا يوسف المصريين الوثنين وشعب بني إسرائيل إلى التوحيد، ولكن القرآن الكريم والسنّة الصحيحة لم يخبرا عن ماهية هذه الدعوة.

وكيف قابل المصريون الوثنيون دعوة يوسف؟

قال هراس: " يوسف قد بلغ من المكانة في مصر أنّ أصبح عزيزها، وصاحب الكلمة العليا فيها، فلنا أن نتوقع أنّ رسالته قد صادفت قبولاً من بعض النفوس، وإن كانت النصوص لم تحدثنا عن شيء من ذلك، ولكن ممّا لا شكَّ فيه أنَّ رسالته قد حفظت

= الذنوب ويؤاخذ بها، هو الله وحده لا شريك له في ذلك، والدليل الثاني: قول النساء لمّا رأين يوسف قلن: حاش لله، وهي كلمة تنزيه تقال عادة في موضع الدهشة، إذن هم يعرفون الله تعالى." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

في بني إسرائيل من بعده، وكانت منار هداية لهم مدّة إقامتهم بمصر حتى خرجوا منها مع موسى عليه السلام." (محمّد هراس)

◎ موت يعقوب ويوسف عليهما السلام:

قال المفسرون: " إنّ يعقوب – عليه السلام – أقام مع يوسف في مصر أربعاً وعشرين سنة، ثم مات، وكان قد أوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه إسحاق، فنهض يوسف بنفسه ودفنه ثَمَّة (هناك)، ثم لمّا عاد إلى مصر عاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، فلمّا تمّ أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه إلى المُلك الخالد."

(محمّد الصابوني)

والذي يظهر أنّ هذا مصدره الإسرائيليّات، **والصواب في خبر موت يعقوب ويوسف عليهما السلام:**

يعقوب عاش في مصر بجوار ابنه يوسف ما شاء الله أن يعيش، ثم مات فيها، أمّا أين دفن؟ فلا دليل يحدد ذلك، بينما يوسف عاش في مصر بعد موت أبيه زمناً الله أعلم بقدره، ثم مات فيها، ودفن فيها، والدليل على دفن يوسف في مصر: أنّ موسى لمّا أمره الله أن يخرج ببني إسرائيل من مصر إلى الأرض المقدّسة حمل معه قبر يوسف.

◎ **قصّة يوسف بين القرآن والتوراة:**

قال فضل عباس: " قال مالك بن بني: إنّ مدى التاريخ واحد تمامًا في كلتا الروايتين، ومع ذلك فإن مجرد التأمّل السريع يمكن أن يكشف لنا عن عناصر خاصّة تميز كلتيهما على حدة، فرواية القرآن تنغمر بِاسْتَمَرار في مناخ روحاني، نشعر به في مواقف وكلام الشخصيات التي تحرك المشهد القرآني.

فهناك قدر كبير من حرارة الروح في كلمات يعقوب ومشاعره في القرآن، فهو نبي أكثر منه أباً، وتبرز هذه الصفة على الأخصّ في طريقته في التعبير عن يأسه عندما يعلم باختفاء يوسف، كما تتجلى في طريقته في تصوير أمله حين يدفع بنيه إلى أن يتحسّسوا من يوسف وأخيه، وامرأة العزيز نفسها تتحدث في رواية القرآن بلغة تليق بضمير إنساني وخزه الندم، وأرغمته طهارة الضحية ونزاهتها على الاستسلام للحقّ، فإذا بالخاطئة تعترف في النهاية بغلطتها، وتقر بخطيئتها، وفي السجن يتحدث حَديث نبي يؤدي رسالته إلى كل نفس يرجو خلاصها.

وفي مقابل ذلك تجد الرواية الكتابيّة تبالغ بعض الشيء في وصف الشخصيات المصرية – الوثنيّة بالطبع – بأوصاف عبرانيّة، فالسجّان يتحدث كموحد، وفي القسم الخاصّ بتعبير الرؤيا في القصّة يرتسم رمز المجاعة في صورة أقل إجادة، فعبارة التوراة

هي: (فابتلعت السنابل الجياد) أمّا الرواية القرآنيّة فإنها تعقبها فحسب.

وفي رواية التوراة يركب إخوة يوسف في سفرهم (حميراً) بدلاً من (العير) في رواية القرآن، على حين أنّ استخدام الحمير لا يمكن أن يتسنى للعبرانيين إلّا بعد استقرارهم في وادي النيل، بعدما صاروا حضريين، إذ الحمار حيوان حضري عاجز في كل حالة عن أن يجتاز مسافات صحراوية شاسعة لكي يجيء من فلسطين، وفضلاً عن ذلك فإنّ ذرّيّة إبراهيم ويوسف كانوا يعيشون في حالة الرعاة الرحل رعاة الأغنام والمواشي.

وأخيراً فإنّ حلّ عقدة القصّة يحمل طابع السرد التاريخي في الرواية الكتابية، حيث يشتمل في الفصول الأخيرة على تفاصيل ماديّة على استقرار العبرانيين في مصر، أمّا في القرآن فإن الحلّ يدور حول الطابع المميز للشخصيّة المحوريّة يوسف الذي يختم هذا الختام المنتصر:

﴿ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ

وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ (يوسف: ١٠٠ – ١٠١) " (فضل عباس وسناء عباس)

◎ فنيّة القرآن المعجز في عرض قصّة يوسف:

قال الدرويش: " في سورة يوسف نفحة من القَصص الرائع الذي استوفى شرائط القصّة؛ كما انتهت إليه أبحاث النقاد في العصر الحَديث؛ ممّا يؤخذ من مظانه الكثيرة، وقد امتازت هذه القصّة على تسلسل حوادثها وكثرة فنونها، وتنوع فصولها بالإيجاز." (محيي الدين الدرويش: ١٩٩٩)

والإيجاز نوعان: إيجاز طويل، وإيجاز قصير، والإيجاز الطويل طوله بالنسبة للقصير منه لا لغيره من الكلام.

وقد جاء النوعان في قصّة يوسف:

فالإيجاز الطويل: تجده من قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ٣﴾ (يوسف: ٣) إلى قوله: ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ (يوسف: ١٠٠)

أمّا الإيجاز القصير: تجده في قوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ (يوسف: ١٠٠ – ١٠١)

قال الدرويش: " فذكر تعالى القصّة أوّلاً على طريق البسط مفصلة لمَنْ لم يشارك في طريق علمها، وذكرها تعالى أخيراً مختصرة ليعلمها مفصلة مَنْ لم يكن يعلمها، حتى جاءت مجملة علم الإشارات فيها، وابتدأها بقوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ﴾ ثم أنهاها بقوله: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (يوسف: ١١١)، ووجه الاعتبار بقَصصهم هو أنّ هذه القَصص إنما سجلت لحصول العبرة منها، ومعرفة الحكمة والمغزى." (محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

◎ الإسرائيليّات الواردة في قصّة يوسف:

وردت في قصّة يوسف – عليه السلام – إسرائيليّات ومرويات مختلفة مكذوبة، شوهت قصّته وحرفتها عن هدفها، قال السعدي: " واعلم أنّ الله تعالى ذكر أنه يقصّ على رسوله أحسن القَصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصّة، وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعُلم بذلك أنها قصّة تامّة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر من الإسرائيليّات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل، وأغلبها كذب، فهو مستدرك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحدّ قبحاً ....، فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصّه، ويدع ما سوى ذلك ممّا ليس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – ينقل."

(عبد الرحمن السعدي: ٢٠٠٠)

وقد نبهناك أثناء عرضنا السابق لقصّة يوسف إلى الكثير من الإسرائيليّات المكذوبة، ونخصّ بالذكر هنا إسرائيليّتين؛ لأنهما ألصقتا كذباً وزراً بالنبي صلى الله عليه وسلم.

الإسرائيليّة الأولى:

ما نسبوه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – كذباً ووضعاً، أنه قال: " **جاء بستاني اليهودي إلى النبي صلى الله عليه**

وسلم، فقال: يا محمّد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف – عليه السلام – ساجدة له، ما أسماؤها؟

فسكت النبي – صلى الله عليه وسلم – فلم يجبه بشيء، فنزل جبريل – عليه السلام – فأخبره بأسمائها، فبعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى البستاني اليهودي، فقال له: هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم، قال: حرثان، والطارق، والذيال، وذو الكفتان، وقابس، ودنان، وهودان، والفيلق، والمصبح، والضروح، والفريح، والضياء، والنور، رآها في أفق السماء ساجدة له، فلما قصّ يوسف على يعقوب، قال: هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد، فقال اليهودي: إي والله إنها لأسمائها." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

قال أبو شبهة: " والذي يظهر لي: أنه من الإسرائيليّات، وألصقت بالنبي زوراً، ثم إنّ سيدنا يوسف رأى كواكب بصورها لا بأسمائها، ثم ما دخل الاسم فيما ترمز إليه الرؤيا؟"

(محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

وقال ابن الجوزي: " هذا الحَديث موضوع."

(محيي الدين الدرويش: ٢٠٠١)

الإسرائيليّة الثانية:

ما يذكر في سبب لبث يوسف في السجن بضع سنين، فقد روي عن مالك بن دينار أنه قال: " **لما قال يوسف للساقي: اذكرني عند ربّك، قيل له: يا يوسف اتّخذت من دوني وكيلاً، لأطيلن حبسك، فبكى يوسف، وقال: يا ربّ، أنسى قلبي كثرة البلوى، فقلت كلمة، ولن أعود.**" (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

وقال الحسن البصري: " دخل جبريل – عليه السلام – على يوسف في السجن، فلمّا رآه يوسف عرفه، فقال له: يا أخا المنذرين، إني أراك بين الخاطئين؟!

فقال له جبريل: يا طاهر، يا ابن الطاهرين، يقرأ عليك السلام ربُّ العالمين، ويقول لك: أما استحييت مني أن استشفعت بالآدميين؟! فوعزتي وجلالي لألبثك في السجن بضع سنين، فقال يوسف: وهو في ذلك عني راض؟ قال: نعم، قال : إذاً لا أبالي."

(محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

قال أبو شبهة: " وأغلب الظنّ عندي: أنّ هذا من الإسرائيليّات، فقد صوّرت سجن يوسف على أنه عقوبة من الله لأجل الكلمة التي قالها، مع أنه – عليه السلام – لم يقل هجراً، ولا منكراً، فالأخذ بالأسباب، أسباب النجاة العادية، وفي أسباب إظهار البراءة والحقّ، لا يتنافى قطّ التوكل على الله تعالى، والبلاء

والابتلاء للأنبياء ليس عقوبة، وإنما هو لرفع درجاتهم، وليكونوا أسوة وقدوة لغيرهم في باب الابتلاء، وفي الحَديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم: " **أشدُّ الناسِ بلاءً الأنبياءِ، فالأمثل، فالأمثل.**"[١] (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

وقال: " فما نعتقده أنّ لبثه في السجن لم يكن عقوبة على كلمة، وإنما هو بلاء ورفعة درجة، ثم كيف يتفق هذا الحَديث مع ما رُوي عن النبي في الصحيحين: " **ولو لبثُ في السجن (طول) ما لَبِثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي.**"[٢] وفي لفظ للإمام أحمد: " **لو كنتُ أنا لأسرعتُ الإجابةَ وما ابتغيتُ العذر.**"؟![٣]

(محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

◎ واقعة الهمّ:

واقعة الهمّ التي أخبر عنها تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ (يوسف: ٢٤) كانت مرتعاً خصباً لزنادقة أهل الكتاب؛ ليطلقوا فيها عنان خيالهم الخبيث للانتقاص من يوسف الصدّيق الطاهر النقي النظيف، وتصويره بصورة الخائن

---

(١) رواه الدرامي: (٢٧٨٣)، وأحمد: (١٤٩٤)، والترمذي: (٣٢٨٩) بدون السؤال.

(٢) رواه البخاري: (٣٣٧٢) واللفظ له، ومسلم: (١٥١).

(٣) رواه أحمد: (٨٥٥٤)

الفاجر العربيد الذي حلّ السراويل، وجلس من امرأة العزيز مجلس الرجل من امرأته إلى آخر هذا الهذيان والافتراء والإفك المبين، والذي لا يشكّ أي منصف عاقل أنه – في الأصل – من دسّ زنادقة أهل الكتاب الذين ما فتئوا يلصقون بأنبياء الله كل عيب وسوء، وليس صنيعهم هذا بعجيب، أليس هم الذين قالوا: يد الله مغلولة؟ غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا!

التفسير الصحيح لهمّ يوسف:

بداية: نرفض رفضاً قاطعاً الإسرائيليّات المكذوبة التي صوّرت يوسف بهذه الصورة الخبيثة التي أشرنا إلى بعضها، وأعرضنا عن ذكر باقيها لشدّة خبثها وقبحها.

فما التفسير الصحيح لهمّ يوسف؟

اختلف المفسرون في تفسير الهمّ على مذهبين:

المذهب الأوّل: ذهب أصحاب هذا المذهب إلى: أنّ الهمّ كان موجوداً، ولكنه لم يثبت عليه، ولم يصرّ، بل سرعان ما تركه لله تعالى، فأثيب عليه، وفسروه بتفاسير عدّة تتفق مع عصمة الأنبياء، منها:

١. **أنه همٌّ بحكم البشريّة مع الغفلة عن ارتكاب النهي:**

فقد قال النسفي: " لقد همّت همّ عزم، وهمّ بها: همّ الطباع مع الامتناع." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨هـ)

وقال القرطبي: " إنما حصل من همّ يوسف كان خاطرة، وحَديث نفس بمقتضى النفس البشريّة، ولم يستقرّ ولم يظهر له أثر." (القرطبي: ٢٠٠٢)

وقال البغوي: " الهمّ همّان:

همٌّ ثابتٌ: وهو إذا كان معه عزم، وعقد، ورضى، مثل همّ امرأة العزيز، والعبد مأخوذ به.

وهمٌّ عارضٌ: وهو الخطرة وحَديث النفس من غير اختيار، ولا عزم، ولا قصد، مثل همّ يوسف، والعبد غير مأخوذ به، ما لم يتكلم به أو يعمل." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

وقال الإمام أحمد: " الهمّ همّان: همّ خطرت وهمّ إصرار، فيوسف – عليه السلام – همّ همًّا تركه لله فأثيب عليه، وتلك همّت همّ إصرار ففعلت ما قدرت عليه من تحصيل مرادها، وإن لم يحصل لها المطلوب." (خالد السبت:١٤٢١)

وقال الشنقيطي: ومثل هذا ميل الصائم إلى الماء والطعام مع أنّ تقواه تمنعه من الشراب والأكل.

٢. **أنه همٌّ بحكم الفحولية:** " وذلك أنه يوسف – عليه السلام – كان فحلاً شاباً خلت به امرأة ذات جمال وغنج، وطالبته تلك المطالبة، فاهتزّ بهزّة الفحل بهزّ ضروري غير مكتسب، فسمي

ذلك الاهتزاز همًّا، لكونه من أسباب الهمّ." (عدنان الكحلوت: ٢٠١١)

إلى غيرها من تفاسير الهمّ بحسب هذا المذهب، والتي لم نذكرها كلها خوفاً من الإطالة والملالة، وفيما ذكرنا كفاية ونهاية.

المذهب الثاني: ذهب أصحاب هذا المذهب إلى منع وقوع الهمّ من يوسف ألبتة، وفسروا الهمّ بتفسيرات عدّة، منها:

قال الطبري: " ذُكر أنّ المرأة همّت بيوسف، وهمّ بها يوسف أن يضربها أو ينالها بمكروه لهّمها به عما أرادته من المكروه، ولولا أنّ يوسف رأى برهان ربّه، وكفه عن ذلك عمّا همّ به أذاها، لا أنها ارتدعت من قبل نفسها." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

وقد أُعترض على ذلك، حيث إنه لا يصحّ أن يُفسر الهمّ بمعنيين مختلفين في جملة واحدة بدون قرينة.

وقال الرازي: " لا نُسلم أنّ يوسف – عليه السلام – همَّ بها، والدليل عليه أنه تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ﴾ (يوسف:٢٤)، وجواب لولا هنا مقدم، وهو كما يقال: قد كنت من الهالكين لولا أنّ فلان خلصك."

(الفخر الرازي)

وقد أُعترض على ذلك: " بإنّ العرب لا تقدم جواب لولا قبلها لا تقول: لقد قمت، لولا زيد، وهو يريد: لولا زيد لقد قمت، هذا مع خلافها جميع أهل العلم بتأويل القرآن الذين عنهم يأخذ تأويله." (ابن جرير الطبري: ٢٠٠٢)

وقد أطال أبو حيان في الردّ على هذا الاعتراض، فقال: " ولا تقول: إنّ جواب لولا متقدم عليها، وإن كان لا يقوم دليل على امتناع ذلك، بل هو صريح أدوات الشرط العاملة مختلف في جواز تقديم أجوبتها عليها، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون، ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري، وأبو العباس المبرد، بل نقول: إنّ جواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه."

(هامش تفسير القرطبي: ٢٠٠٢)

والراجح ما قاله أبو حيان إن شاء الله.

قال الشنقيطي: " هذا الوجه الذي اختاره أبو حيان وغيره هو أحرى الأقوال على قواعد اللغة العربية؛ لأنّ الغالب في القرآن وفي كلام العرب أن الجواب المحذوف يذكر قبله ما يدلُّ عليه، كقوله: ﴿فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤﴾ (يونس: ٨٤) أي: إن كنتم مسلمين فتوكلوا عليه.

فالأوّل: دليل الجواب المحذوف، لا نفس الجواب؛ لأنّ جواب الشرط وجواب لولا لا يتقدّم، ولكن يكون المذكور قبله دليلاً عليه،

وكقوله: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (البقرة: ١١١) أي: إن كنتم صادقين هاتوا برهانكم.

وعلى هذا القول يكون معنى الآية: وهمّ بها لولا أن رأى برهان ربّه، أي لولا أن رآه همّ بها.

فما قبل لولا هو دليل الجواب المحذوف، كما هو الغالب في القرآن واللغة." (خالد السبت: ١٤٢١)

◎ برهان يوسف:

برهان يوسف الذي أخبر عنه تعالى في كتابه الكريم: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ (يوسف: ٢٤) كان هو الآخر مادة خصبة لتزايد المتزايدين من اليهود، فأطلقوا فيه الخيال اتّهامًا وانتقاصاً ليوسف، ومن هذه الأباطيل المكذوبة المروية عن البرهان الذي رآه يوسف:

١- أنه كان نداء نودي به يوسف: أنت مكتوب في الأنبياء، وتعمل عمل السفهاء. (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

٢- أنه: رأى صورة أبيه يعقوب في الحائط. (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

٣- أنه: رأى صورة أبيه في سقف الحجرة، وأنه رآه عاضاً على إبهامه، وأنه لم يتّعظ بالنداء حتى رأى أباه على هذا الحال. (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

قال أبو شبهة: " بل أسرف واضعوا هذه (الإسرائيليّة) الباطلة، فزعموا: أنه لمّا لم يَرْعَوِ من رؤية صورة أبيه عاضاً على أصابعه، فضربه أبوه يعقوب ضربة، فخرجت شهوته من أنامله، ولأجل أن يؤيدوا هذه الكذبة، زعموا أنّ كل أبناء يعقوب قد وُلِدَ لهم اثنا عشر ولداً عدا يوسف، فإنه نقص بتلك الشهوة التي خرجت من أنامله ولداً، فلم يولد له غير أحد عشر ولداً." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

٤- وقالوا: أنه رأى تمثال المَلك، وهو العزيز، وقيل خياله.

(محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

إلى غير ذلك من الكذب والاختلاق، والذي كله مرجعه إلى أخبار بني إسرائيل وأكاذيبهم التي افتجروها على الله ورسله، وحملها منهم بعض الصحابة والتابعين.

ما التفسير الصحيح للبرهان؟

اختلف على أقوال:

القول الأوّل: قال أبو شبهة: " البرهان هو: حجّة الله الباهرة الدالّة على قبح الزنى، وهو شيء مركوز في فِطر الأنبياء، ومعرفة ذلك عندهم وصل إلى عين اليقين، وهو ما نعبر عنه بالعصمة، وهي التي تحول بين الأنبياء والمرسلين وبين وقوعهم في المعصية.

ويرحم الله الإمام جعفر الصادق حين قال: البرهان: النبوّة التي أودعها الله في صدره، حالت بينه وبين ما يسخط الله عزّ وجلّ." (محمّد أبو شبهة: ١٤٠٨)

القول الثاني: قال الرازي: " البرهان هو حجّة الله تعالى في تحريم الزنى، والعلم بما على الزاني من العقاب." (الفخر الرازي)

القول الثالث: قال الرازي: " المراد بالبرهان: أنّ الله تعالى طهّر نفوس المتصلين به عنها، فالمراد بالبرهان: هو حصول تلك الأخلاق، وتركيز الأحوال الرادعة لهم عن الإقدام على المنكرات." (الفخر الرازي)

والأقوال الثلاثة متقاربة، والله أعلم.

o o o o

الفصل الثاني

الفوائد المستفادة من قصّة يوسف
– عليه السلام –

﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾
(يوسف: ١١١)

الفوائد المستفادة من قصّة يوسف – عليه السلام –

تمهيد:

قصة يوسف كغيرها – من قصص الأنبياء والمرسلين – ليست للتسلية أو السمر وإنما لأخذ العبر والعظات، وللاقتداء بهؤلاء الأطهار الأتقياء الأنقياء، والسير على دربهم، فاطلاعنا على سيرهم، وما تحملوه من أذى في سبيل الله تقوية لعزائمنا، وتصحيح لهممنا، وتسلية لنا عما يصيبنا من اللأواء.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (يوسف: ١١١)

الفوائد المستفادة من قصّة يوسف – عليه السلام –:

١. العدل بين الأبناء:

العدلُ مطلوبٌ في جميع الأمور: صغيرها وكبيرها، قليلها وكثيرها، حقيرها وجليلها، ومنها معاملة الوالدين لأبنائهما، وتحقيق العدل بين الأبناء تستقيم به الحياة، ويحصل الأبوان به على ما

يحبّاه ويتمنّياه، والإخلال به يفسد الحياة، ويجني الأب بسببه ما يكرهه ويخشاه.[1]

بعض المسائل المتعلقة بهذه الفائدة:

أ. الأصل العدل في الهبات بين الأبناء، ولكنّ للأب أن يُؤْثر أحد أبنائه بهبة خاصّة في بعض الأحيان، نحو:

- الابن البار يُوهب له دون الابن الفاجر.
- الابن المريض بمرض ملازم يُوهب له دون الصحيح السليم.
- ابنٌ يعمل مع أبيه، وآخر يتعلم في الجامعات، يُوهب للأوّل بقدر ما يُعادل ما أنفق على الثاني.

ب. لا وصية لوارث.

---

(١) **تنويه مهم:** يُذكر أنّ سبب حقد أبناء يعقوب على يوسف كان بسبب تقديم يعقوب ليوسف في المحبّة.

وهذا ليس بصواب، فكما ذكرنا أنّ يعقوب النبي الحكيم أحبّ يوسف حبًّا فطريًّا، وهذا الحبّ لا يورث كل هذا الحقد الذي امتلأت قلوب أبناء يعقوب به.

لذا الذي يظهر أنّ حقد أبناء يعقوب على أخيهم يوسف كان سببه الأساسي تفوق يوسف عليهم شكلاً وعقلاً ولباقة اجتماعيّة، والله أعلم.

ج. يجوز إسرار بعض الأسرار إلى أحد الأبناء الراشدين، وينبغي تعليمهم حفظ السرّ، ولا يعدّ الإسرار ببعض الأسرار لبعض الأبناء تفضيلًا لهم.

د. التوازن في معاملة الأبناء بين الرحمة والرأفة مع العدل والإنصاف، ويظهر ذلك التوازن جليًّا في فعل عمر بن الخطاب مع ابنيه: عبد الله، وعبد الرحمن، فالأوّل: جعله الشاهد على مجلس الاستخلاف تعزية له، أمّا الثاني: جلده جلد تعزيز حتى يكون أوقعاً في نفسه، فعزّز الأوّل وعزّر الثاني.

٢. من الأسباط؟

السبط في اللغة العربية ولد الابنة، حيث إنّ ولد الابن يسمى حفيداً، وقد ورد في القرآن ذكر الأسباط في عدّة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦) وقد اختلف في المراد بالأسباط على قولين:

القول الأوّل: هم أولاد يعقوب من صُلبه، فيعقوب كان لديه أبناء ذكور يقدرون بحوالي اثني عشر ذكراً، وإلى هؤلاء الأبناء تنسب أسباط بني إسرائيل، فجميع بني إسرائيل انحدروا وتناسلوا من أولاد يعقوب، وكان أشرفهم وأفضلهم وأعظمهم يوسف عليه السلام.

القول الثاني: وهو اختيار ابن تيمية ومَنْ وافقه: أنّ الأسباط قبائل بني إسرائيل، كالقبائل في العرب، وليسوا أبناء يعقوب من صُلبه.

والراجح: القول الثاني، فالأسباط ليسوا أولاد يعقوب من صلبه، بل ذرّيّته، فالأسباط من بني إسرائيل كالقبائل من بني إسماعيل، والله أعلم.

٣. هل إخوة يوسف صاروا أنبياء؟

الراجح أنه لم يكن في أولاد يعقوب نبيٌّ غير يوسف، وأنّ جميع إخوة يوسف لم يوحَ إلى واحد منهم، قال ابن كثير: " وظاهر ما ذُكر من فعالهم ومقالهم في هذه القصّة، يدلُّ على هذا القول، ومن استدلَّ على نبوتهم بقوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٦)، وزعم أنّ هؤلاء هم الأسباط فليس استدلاله بقوي؛ لأنّ المراد بالأسباط شعوب بني إسرائيل، وكان يوجد فيهم من الأنبياء، الذين نزل عليهم الوحي من السماء، وممّا يؤيد أنّ يوسف – عليه السلام – هو المختصّ من بين إخوته بالرسالة والنبوّة أنه لم يُنصّ على واحد من إخوته سواه، فدلّ بذلك على ما ذكرناه."

(محمّد الصابوني)

٤. الحذر من شؤم المعاصي:

الحذر الحذر من شؤم المعاصي والذنوب، فكم من ذنب واحد، يعدّه الإنسان بسيطاً تافهاً، إلّا أنه يجرّ على صاحبه ذنوباً كثيرة، **وتأمّل:** أبناء يعقوب فعلوا ذنباً واحداً، وهو التفريق بين يعقوب وابنه يوسف، وبسبب ذلك الذنب الواحد اقترفوا ذنوباً كثيرة، واحتلوا حيلاً عديدة، وكذبوا مرّات عدّة.

وضدّ ذلك يُمّن الطاعات، فطاعة واحدة يفعلها العبد يستتبع بفضل يُمّنها وبركتها طاعات عديدة.

فالحسنة تجرُّ الحسنات، والسيئة تتبعها السيئات.

٥. العبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية:

العبرة للعبد في حال كمال نهايته لا بنقص بدايته، فأبناء يعقوب جرى منهم ما جرى في أوّل الأمر من جرائم متنوعة، ثم

انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والعفو التامّ عنهم من يوسف وأبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإن لم يكونوا أنبياء – على القول الراجح – فإنهم على أقل تقدير صاروا علماء عباداً.

وكذلك سحرة فرعون كانوا في أوّل النهار سحرة فجرة، ثم صاروا في آخر النهار شهداء بررة.

وكذلك الصحابة الكرام كانوا عباد صنم، ثم صاروا قادة أمم.

فالعبرة بكمال النهايات لا بنقص البدايات.

٦. فنيّة القرآن في إضفاء الستر على محنة يوسف مع امرأة العزيز:

القرآن الكريم ألبس محنة يوسف مع امرأة العزيز لباس الستر والحياء، ورسمها بريشة العفّة والسريّة والكتمان، وتلكم اللوحة الفنيّة البديعة التي رسمها القرآن المعجز لهذه المحنة القاسية:

بداية بدأ القرآن رسمَهُ لهذه المحنة بقوله: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ (يوسف: ٢٣)، فلم يذكر القرآن اسم امرأة العزيز، وإنما كنّى عنها، فلم يقل: فراودته امرأة العزيز عن نفسه؛ وذلك للمحافظة على الستر ما أمكنه، وإعلاء للحياء ما استطاع إليه سبيلاً.

وعندما تحدث القرآن عن إجراءات امرأة العزيز لحبك خطتها في إيقاع يوسف في شركها اكتفى بقوله: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾

(يوسف: ٢٣) مع أنه كانت هناك خطوات قبل تغليق الأبواب لم يذكرها القرآن حياء وسترًا.

ولمّا حكى القرآن تصريح امرأة العزيز العلنيّ للفاحشة لم يتجاوز: ﴿وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ﴾ (يوسف: ٢٣)، وطوى كلامًا كثيرًا طلبًا للستر.

ثم إن القرآن بعد كل لقطة من لقاطات تصويره لهذه المحنة، يُكثر من لغة العفّة والنظافة والستر، نحو: ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (يوسف: ٢٣)

لذا إذا وازنّا بين الكلمات التي تحدثت عن المراودة والفاحشة والرغبة، والكلمات التي أبرزت العفة والنظافة والستر، نجد أنّ الميزان يرجح للكلمات النقيّة التقيّة؛ ليبيّن القرآن أنّ هذه القصّة مروية لأخذ العبرة، ورفعاً لراية العفّة، وحفاظاً على الكتمان والسريّة.

وعندما صور القرآن استباق يوسف وامرأة العزيز نحو الباب، غلّب جانب الستر، بل كاد أن تكون حكايته عن هذه المطاردة لإبراز العفاف وأهمية الكتمان، قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ

مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ (يوسف: ٢٥)

وفي دفاع يوسف عن نفسه أمام العزيز قال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِيۚ﴾ (يوسف: ٢٦) فقد أتى – عليه السلام – بضمير الغيبة (هي) بالرغم من أنها كانت حاضرة، فلم يشر إليها أو يعينها بالإشارة، فلم يقل: هذه راودتني أو تلك راودتني، طلباً للستر والحياء والعفّة.

وفي حَديث القرآن عن شهادة الشاهد جاءت ألفاظه غير جارحة، وساترة للفضيحة القادحة، قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (يوسف: ٢٦ – ٢٧)

ولمّا ذكر القرآن الهمّ الذي وقع من يوسف كونه في أحد التفسيرين بأنه همّ خطرات النفس، تحدث عنه بستر بالغ لا يخدش حتى حياء العذارى، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (يوسف: ٢٤)

يا الله!! بالرغم من أن الآية تحدثت عن الشهوة والرغبة، لا نجد فيها ما يخدش الحياء وينقص من الستر!

وتتجلى لغة الستر في قول يوسف أكثر عندما جاءه رسول المَلك بِبِشارة خروجه من السجن: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ٥٠﴾ (يوسف: ٥٠) فلم يذكر يوسف سيدته مع أنها هي التي سعت في إلقائه في السجن الطويل، واقتصر على ذكر النسوة، ولم يذكر من قصّته مع امرأة العزيز والنسوة إلّا خدش الأيدي فقط دون غيرها، فلم يذكر الكيد مع أنها أظلم شيء في قصّته، واكتفى بالإشارة الإجماليّة إلى هذا الكيد بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ﴾ (يوسف: ٥٠) وذلك كله طلباً للستر ما أمكن.

وأخيرًا وليس بآخر في حَديث يوسف عن نعم الله عليه في نهاية السورة، ذكر – عليه السلام – جميع النعم، واستثنى براءته من مراودة امرأة العزيز له، وذلك إعلاءً للستر.

وبالجملة لا تجد كلمة واحدة قد حكاها القرآن عن هذه المحنة إلا وقد أضفى عليها الستر وغلّب الحياء ما أمكنه إلى ذلك سبيلًا، حتى خرج ما قصّه لنا عن هذه المحنة بلغة عفيفة شريفة ستيرة، وكأنها قصّة تحكي عفّة شاب!

فَأَنْعِمْ به من قرآن!

٧. الحذر من الخلوة بالنساء الأجنبيات[١]:

الحذر الحذر من الخلوة بالنساء الأجنبيات، ولا سيما اللواتي يخشى منهن الفتنة، فامرأة العزيز جرى منها ما جرى بسبب انفرادها بيوسف أوقات وأوقات، هذه الخلوة وما جرى فيها من حوارات جعلها تتعلق بيوسف حتى ملأ حبّه سويداء قلبها، ذلك الحبُّ المحرمُ الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة العنيفة، ثم كذبت عليه كذبتها الشنيعة، فسُجِنَ ذلك السجن الطويل الظالم.

والإسلام قد أوصد هذا الباب لخطورته ايصادًا تامًّا، فقد قال صلى الله عليه وسلم: " **لا يخلونَّ رجلٌ بامرأةٍ إلّا ومعها ذو محرمٍ.**" (رواه مسلم: ٢٤٨٠)

ولشدّة خطر هذه الخلوة لم يجزها الإسلام حتى في المقاصد الشريفة الشرعية كتعليم القرآن.

ومن لطيف ما روي في ذلك: " مرّ الوليد بن عبد الملك بمعلم صبيات فرأى جارية، فقال: ويلك ما لهذه الجارية؟

فقال: أعلمها القرآن.

قال: فليكن الذي يعلمها أصغر منها." (الجاحظ : ٢٠١٠)

---

(١) يقصد بالنساء الأجنبيات: النساء اللواتي يجوز التزوج منهن.

٨. حبّ المرأة لرجل غير زَوْجها:

هل يجوز للمرأة المتزوجة أن تحبّ رجلاً غير زَوْجها؟

بداية: أنقل ما قاله القرضاوي: " ويحسن بي أن أذكر هنا ما قاله أحد علماء العصر ودعاته يوماً، وقد سئل: هل الحبّ حلال أم حرام؟ فكان جوابه اللبق: الحبّ الحلال حلال، والحبّ الحرام حرام." (يوسف القرضاوي: ٢٠٠١)

وليس هذا الجواب ألغازاً!! فما الحبُّ الحلال؟ وما الحبُّ الحرام؟ ببساطة: الحبُّ الحلال هو حبُّ الرجل لزَوْجه، وبالعكس، وأمّا الحبُّ الحرام هو أن يحبَّ الرجلُ امرأةً لا يستطيع أن يتزَوْجها كأن تكون متزوجة، وكحبّ المرأة المتزوجة لرجل غير زَوْجها.

وسبب منع الإسلام لهذا الحبّ المحرم؛ لأنه يفسد الحياة، تأمّل: الرجل الذي يحبُّ امرأة متزوجة، فإنه سيشغل بالها وقلبها، ويفسد حياتها مع زَوْجها، وقد ينتهي الأمر إلى الخيانة الزوجيّة.

وقُلْ مثل ذلك وأشدّ عندما تحبُّ المرأة المتزوجة رجلاً غير زَوْجها، فإنها ستنشغل به، وتكثر التفكير فيه، وفي المقابل ستعرض عن شريك حياتها وأب أولادها، وقد يؤدي هذا الحبّ الحرام إلى ما هو أخطر، وهو الفاحشة!

وإن لم يصل إلى ذلك، أدى إلى تشويش الخاطر، وقلق القلب، وتوتر النفس، وفي النهاية تكدير الحياة الزوجيّة.

وإن قيل: الحبّ ليس بمقدور البشر فَلِمَ يلام عليه الإنسان؟!

نقول: نعم، الحبّ ليس في مقدور البشر، ولكن الحبّ لا ينشأ من فراغ، فلا بدّ له من مقدمات تؤدي إليه، وبوسع الإنسان أن يتحكم في هذه المقدمات، فالنظرة، والمحادثة، والتزاور، والتراسل، واللقاء، كلها مقدمات لعاطفة الحبّ.

فالاسترسال في هذه الأشياء، والتوغل والاستغراق فيها، سيؤدي في الغالب إلى نشوء الحبّ.

نَظرَةٌ فَابتِسامَةٌ فَسَلامٌ * * فَكَلامٌ فَمَوعِدٌ فَلِقاءُ

إذن الاسترسال في هذه الأشياء هي التي يلام عليه الإنسان، لأنه بوسعه التحكم فيها.

وبعد هذه المقدّمة الطويلة نعود إلى السؤال الذي طرحنا: هل يجوز أن تحبّ المرأة رجلاً غير زَوْجها؟

الجواب: لا، وبشكل قاطع، فالمرأة المتزوجة لا يحقّ لها بأي حال من الأحوال، وتحت أي ظرف من الظروف أن تحبّ رجلاً غير زَوْجها.

والسؤال الذي يطرح الآن وبقوّة: وكيف تنجح في ذلك؟

تنجح في ذلك: " إذا سدت على نفسها كل باب يمكن أن تهبّ منه رياح الفتنة، وخصوصاً إذا لمعت بوادر شيء من ذلك، فعليها

أن تبادر إلى إطفاء الشرارة قبل أن تستحيل إلى حريق مدمر." (يوسف القرضاوي: ٢٠٠١)

" أعني إنها إذا أحسّت بدبيب عاطفة نحو إنسان آخر غير زَوْجها، فعليها أن تقاومها بأن تمتنع عن رؤيته، وعن مكالمته، وعن كل ما يؤجج مشاعرها نحوه." (يوسف القرضاوي: ٢٠٠١)

" وإذا عجزت عن مقاومة عاطفتها (بعد أخذها بأسباب إطفائها)، فلتكتمها، ولتصبر على ابتلائها، ولن تحرم – إن شاء الله – من أجر الصابرين." (يوسف القرضاوي: ٢٠٠١)

وقل مثل ذلك: للرجل إن أحبّ امرأة لا يستطيع أن يتزَوْجها كأنّ تكون متزوجة مثلاً، فعليه مجاهدة هذا الهوى المحرم، ولن يعدم الخير إن شاء الله تعالى.

٩. احذر أن تضرّ أي إنسان ولو ضرراً بسيطاً:

عندما عاد إخوة يوسف إلى مصر ومعهم بنيامين، انفرد يوسف بأخيه بنيامين وأخبره سرًّا بأنه أخوه، وسلاه عما كان يصدر منهم من إساءة إليه، ولعلّه أخبره بحيلته، وأوصاه ألّا يخبر إخوته بذلك.

وصنيع يوسف هذا قد يعرض كل خطته – التي مدار نجاحها على السرّ والكتمان – للفشل الذريع؛ لأنّ بنيامين – ببساطة – لا يعرف يوسف، بينما هو يعرف إخوته الذين يعيش معهم، ومن

الوارد بل الراجح أنه سيخبر إخوته بما قاله له العزيز، وتفشل الخطة.

فما السبب وراء هذا الصنيع من يوسف عليه السلام؟

السبب هو: حتى لا يتسبب يوسف بحيلته هذه في إلحاق أي ضرر - حتى ولو كان هذا الضرر ضرراً نفسياً - لأخيه الصغير بنيامين.

وتأمّل: عندما استعطف إخوة يوسف أخاهم يوسف أن يترك بنيامين، ويأخذ أحداً منهم مكانه، قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ﴾ (يوسف: ٧٩)، ولم يقل: **معاذ الله إلّا أن نأخذ من سرق.**

وأهل البلاغة يرون الاختصار في الجواب أبلغ من الإطالة، فما السبب الذي جعل يوسف يطيل الجواب ويردد كلمات عدّة: (من وجدنا متاعنا عنده) بدلاً من الاختصار الأبلغ بذكر كلمة واحدة: (من سرق)؟!

وذلك لسببين: السبب الأوّل: ما قاله الألوسي: " لتحقيق الحقّ والاحتراز من الكذب." (محمّد الصابوني)

السبب الثاني: لئلا يتسبب بأي ضرر لأخيه الصغير ولو لفظياً.

فاحرص على ألّا تؤذي أي إنسان ولو بشطر كلمة.

١٠. موقف الإسلام من الحيل:

ذهب فريق من العلماء إلى جواز الحيل مطلقاً لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (يوسف: ٧٠)

قال الصابوني: " وليس الأمر كما زعموا، فإن ذلك كان بإذن الله ليظهر فضله على سائر إخوته بدليل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ (يوسف: ٧٦) " (محمّد الصابوني: ١٩٩١)

قال الألوسي: " وعندي أنّ كل حيلة أوجبت إبطال حكمة شرعيّة لا تُقبل، كحيلة سقوط الزكاة، وحيلة سقوط الاستبراء." (محمّد الصابوني: ١٩٩١)

فالحيلة الصحيحة هي الحيلة التي بها يدفع الإنسان عن نفسه أو عن غيره مكروهاً، وأمّا الحيل المرفوضة هي: " التي يتوصل بها للهروب من فرائض الله، والتخلص ممّا أوجبه الله على الإنسان، فهذا لا يقبلها ذو قلب سليم، ولا يقرّها مسلم عاقل." (محمّد الصابوني: ١٩٩١)

١١. الصفحُ خلقٌ سامٍ:

الصفحُ خلقٌ سامٍ رفيعٌ، لا يصدر إلّا من نفس مؤمنة مطمئنة، لِما فيه من كسر لِما جبلت عليه النفوس من حبّ شهوتي الانْتقام والانتصار، وقد رمق هذا الخلق السامي الرفيع، وحلّق في فضائه الواسع الرحيب يوسف الصدّيق عليه الصلاة وأتمّ التسليم، فقد عفا وصفح عن إخوته صفحاً جميلاً، قائلاً: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ (يوسف: ٩٢) فصفح عنهم صفحاً جميلاً بلا تأنيب أو تعيير أو استطالة عليهم، وزادهم خيراً بالدعاء لهم بالمغفرة والرحمة.

قال الفضيل بن عياض:

" إن أتاك رجل يشكُ إليك رجلاً، فقل: يا أخي، اعف عنه، فإنّ العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن انتصر كما أمرنا الله تعالى، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر فانتصر، وإلّا فارجع إلى باب العفو، فإنه باب واسع فسيح، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور."

ولله درُّ عمر بن الخطاب عندما قال: " ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه." (ابن كثير: ١٩٨٧)

أمّا من انتقم فقد انتصف وشفى غيظ نفسه، وأخذ أقصى حقّه، ومن أخذ حقّه وشفى غيظه لم يجب شكره، ولم يذكر في العالمين فضله، وأمّا إن عفا فقد تطاول، وكظم الغيظ حِلم، والحِلم صبر، والتشفي طرف من العجز.

ولا يفهم من الترغيب في الصفح، أنّ إيقاع العقوبة مذموم دوماً، فكما أنّ الصفح مرغوب فيه ومطلوب، قد تكون إيقاع العقوبة رحمة وحكمة، فالإنسان الذي يسير بسيارته بشكل متهور دائماً، إذا صدم إنساناً، فإنّ العفو عنه خطأ كبير، وإيقاع العقوبة المغلظة عليه رأي سديد مستنير، لِما فيه من رحمة بالمجتمع لردع هؤلاء المتهورين المستهترين بأرواح الناس، وقد قيل في منثور الحكم: وبعض العفو إغراءٌ، كما أنّ بعض المنع إعطاء.

١٢. فائدة لغوية:

جاء في سورة يوسف ثلاث كلمات، وهي: اللوم، التثريب، التفنيد. وهي متقاربة من حيث المعنى، ممّا دفع بعض المفسرين إلى عدها من المترادفات.

بينما قال فضل عباس: " ولكن الدقّة والإحكام في استعمال الكلمات القرآنيّة، يحتمان علينا أن نقف مع هذه الكلمات، وأن ننظر إلى السياق الذي جاءت فيه كل منها، فاللوم وهو: العذل ولعلَّه أشدّها وأقوّها وأكثرها قسوة جاء من امرأة العزيز ردًّا على

النسوة (اللواتي لاموها) وانتشر حَديثهنَّ، قائلة لهن: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ﴾ (يوسف: ٣٢)، فجاءت كلمة اللوم هنا مستقرّة في موضعها أصيلة في مكانها الذي استعملت فيه لا يسدّ عنها غيرها.

أمّا الكلمة الثانية وهي كلمة: (التثريب)، فلقد جاء حَديثاً من يوسف – عليه السلام – لإخوته بعد أن ظهرت لهم الحقيقة وشعروا بالذنب وندموا على فعلتهم، فقال لهم: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ (يوسف: ٩٢)، فانظروا إلى سياق هذه الكلمة في كتاب الله، فلم يقل: لا لوم عليكم، كما جاء في الآية السابقة، (وإنما استعمل التثريب) ليدّلنا على ما أكرم الله به يوسف – عليه السلام – من حسن الخُلق كما مَنّ عليه بحسن الخَلق، فهو يقول لهم: لا عتب وتأنيب، دعوا ما مضى، ولا تؤنبوا أنفسكم بما كان منكم، فلا تثريب عليكم اليوم، فكلمة تثريب هنا لا تسدّ مسدّها كلمة أخرى.

أمّا الكلمة الثالثة وهي التفنيد، فقد ذكرها القرآن الكريم حَديثاً عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ (يوسف: ٩٤)، ومع أن بعض المفسرين فسروها: لولا أن تلومون، ولكن استعمال

القرآن الكريم لها في هذا الموضع يجعل لها كيانها الخاصّ، وظلالها الخاصّة كذلك، فالتفنيد هنا ليس اللوم، وإنما أصله الإفساد، فيعقوب – عليه السلام – كي لا يتهمه ذويه لشيخوخته بضعف الرأي وفساده، كانت الكلمة تفندون حَديثاً منه."

(فضل عباس وسناء عباس)

١٣. العينُ حقٌّ:

قال تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ۝٥١ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٥٢﴾ (القلم: ٥١ – ٥٢) قال ابن كثير: " وفي هذه الآية دليل على أن العين وإصابتها وتأثيرها حقّ بأمر الله عزّ وجلّ."

(ابن كثير: ١٩٨٧)

فالعينُ حقٌّ، هكذا أخبر صلى الله عليه وسلم: " **العينُ حقٌّ.**" (رواه البخاري: (٥٧٤)، ومسلم: (٢٠٨٧)) قال الحافظ: " **العين حقّ**" أي: " الإصابة بها شيء ثابت موجود، أو من جملة ما تحقّق كونه." (محمود الجاسم: ١٩٩٣)

وإنّ للعين تأثير حقيقي يضرّ المعين بإذن الله، كما قال صلى الله عليه وسلم: " **العينُ حقٌّ تدخلُ الرجلَ القبرَ، وتدخلُ الجملَ القِدْرَ.**" (رواه ابن حبان، والديلمي: (٤٢١٤))، ومعنى الحَديث: تدخل العين الرجل القبر أي تقتله فيدفن في القبر، وتدخل الجمل

القِدْر، أي: إذا أصابته مات أو أشرف على الموت فذبحه مالكه وطبخه في القِدْر، وهذا كله تحت إرادة الله – عزّ وجلّ – ومشيئته.

ولقوله صلى الله عليه وسلم: " **ولو كان شيءٌ سابقُ القَدَرَ لسبقَتْهُ العينُ.**" (رواه مسلم: ٢١٨٨)، وفي هذا الحَديث مثّل الرسول للإصابة بالعين بأنه لو كان هناك شيئًا سابقاً للقَدَر لسبقه العين أي: لو كان هناك شيئًا غالباً القدر في السبق لسبقه العين، والمعنى: لو أمكن أن يسبق القَدَر شيء فيؤثر في إفنائه وزواله قبل أوانه المقدّر له، لكان هذا الشيء الذي سبق القَدَر هو العين.

قال القرطبي: " هذا مبالغة في تحقيق إصابة العين تجري مجرى التمثيل إذ لا يرد القَدَر شيء." (القرطبي: ٢٠٠٢)

قال المازري: " أخذ الجمهور بظاهر (الأحاديث) وأنكرها طوائف المبتدعة لغير معنى؛ لأنّ كل شيء محالاً في نفسه، ولا يؤدي إلى قلب الحقيقة، ولا إفساد دليل، فهو من متجاوزات العقول، فإذا أخبر الشرع بوقعه، لم يكن لإنكاره معنى، وهل من فرق بين إنكارهم هذا وإنكارهم ما يخبر به الشرع من أمور الآخرة؟!" (محمود الجاسم: ١٩٩٣)

١٤. **الإسلامُ دينٌ لا يقدسُ إلّا اللهَ وحدَهُ:**

الإسلام دين الله الواضح المستقيم، الذي حارب الكفر والشرك وأهله، وهدم الوثنيّة بكل أشكالها وأصنافها؛ لذا لم يُقدّس أشخاصاً مهما كانوا، أو أماكن مهما شرفت، أو جمادات مهما عظمت، وإنما قدّس الله الواحد الأحد.

تأمّل: عظّم أشخاصاً (كالرسل)، وفي المقابل أهان أشخاصاً (كالكفار)، كرّم أماكن (مثل: مكة)، وفي المقابل ذمّ أماكن (مثل: مساكن ثمود في الحِجر)، عظّم حجراً (كالحجر الأسود)، ورجم حجراً (كرمي الحجار).

جعل قميصاً ملطخاً بالدماء سبباً لفقدان يعقوب – عليه السلام – بصره، وقميصاً آخر لعودة بصره؛ وذلك ليرسخ عقيدة قويّة مفادها: أنّ التعظيم والتحقير لجميع المخلوقات مرجعه إلى حكم الله وحده، وأنّ المستحقّ للقدسيّة التامّة والخضوع الكامل هو الله وحده.

فَأَنْعِمْ به من دين!

١٥. **إنّ مع العسر يسراً:**

لا يأتي العسرُ إلّا ومعه اليسر، ويكون الفرج متى كان الكرب، تلك هي سُنّة الله تعالى في أرضه، كما قال تعالى: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ (الطلاق: ٧)

ويوسف ويعقوب – عليهما السلام – ضربا القدح المُعلّى في تمثّل هذه الآية السابقة، فما من عُسر ألما بهما، أو شدّة أحدقت بهما، إلّا تمثّلا ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ (الطلاق: ٧)، فكانت العاقبة لهما، والدولة إليهما.

ولله درُّ إبراهيم بن المهدي:

إذا الحادثاتُ بَلَغْنَ النُّهى * * * وكادَتْ تَذوبُ لهنّ المُــهج
حلّ الـبلاءُ وقـلّ الـعزاءْ * * * فَعِنْدَ التَّنـاهي يكونُ الفَرج

فلمّا صبر آل يعقوب، وانتظروا الفرج، حصل الفرح بالتلاقي في أشدّ الأوقات حاجة، وتحتمّ اللقاء في أكثر الاوقات ضرورة، فحصل الأجر، وتحقق الخير، وجاء الموعود، ولله الحمد والمنّة من قبلُ ومن بعدُ.

١٦. حكم تمنّي الموت:

قال يوسف: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ (يوسف: ١٠١) فكيف استجاز يوسف تمنّي الموت وقد صحّ عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قوله: " **لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ من ضُرٍّ أصابَه، فإنْ كان لا بدّ فاعلاً فليقلْ: اللهمَّ أحيني ما**

كانتِ الحياةُ خيراً لي، وتوفني إذا كانتِ الوفاةُ خيراً لي." (رواه البخاري: ٥٦٧١)؟

يوسف لم يتمّنَ الموت في قوله: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا﴾، وإنما تمنّى يوسف أن يموت على الإسلام.

وهل يُمنع تمنّي الموت مطلقًا؟

الجواب: لا يمنع تمنّي الموت على الإطلاق، فقد أجاز الإسلام في حال الضرر في الدين تمنّي الموت، كما في حَديث معاذ في الدعاء والذي رواه أحمد: " **وإذا أردتَ بعبادِك فتنةً فاقبِضني إليك غيرَ مفتون.**" (رواه الترمذي: (٣٢٣٣) واللفظ له، وأحمد: (٣٤٨٤))، وقوله صلى الله عليه وسلم: " **لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ من ضُرٍّ أصابَه، فإنْ كان لا بدّ فاعلاً فليقلْ: اللهمَّ أحيني ما كانتِ الحياةُ خيراً لي، وتوفني إذا كانتِ الوفاةُ خيراً لي.**" (رواه البخاري: ٥٦٧١)[1]

وكما قالت مريم عليه السلام: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ (مريم: ٢٣)، وقد تمنّى الموت علي بن أبي طالب لمّا تفاقمت الأمور عليه، وعظمت الفتن، واشتدّ القتال،

(١) المراد بالضرر المنهي عن تمنّي الموت بسببه في حَديث النبي صلى الله عليه وسلم، هو الضرر الذي يصيب العبد في بدنه من مرض ونحوه، لا في دينه.

وكثر القيل والقال، وتمنّى ذلك البخاري لمّا اشتدّ عليه الحال، ولقي من مخالفيه الأهوال، وقد قالوا في منثور الحكم: الأشدّ من الموت ما يُتمنّى له الموت.

١٧. **قصّة عفّة شاب:**

ذكر ابن الجوزي في المواعظ:

" أنّ شاباً فقيراً كان بائعاً يتجول في الطرقات، فمرّ ذات يوم ببيت، فأطلت امرأة وسألته عن بضاعته، فأخبرها، فطلبت منه أن يدخل لترى بضاعته، فلمّا دخل أغلقت الباب، ثم دعته إلى الفاحشة، فصاح بها، فقالت: والله إن لم تفعل ما أريده منك صرخت، فيحضر الناس فأقول هذا الشاب اقتحم عليّ داري، فما ينتظرك بعدها إلّا القتل أو السجن.

فخوّفها بالله فلم تنزجر، فلمّا رأى ذلك، قال لها: أريد الخلاء، فلمّا دخل الخلاء، أقبل على الصندوق الذي يجمع فيه الغائط، وجعل يأخذ منه ويلقي على ثيابه ويديه وجسده، ثم خرج إليها.

فلمّا رأته صاحت، وألقت عليه بضاعته، وطردته، فمضى يمشي في الطريق والصبيان يصيحون وراءه: مجنون مجنون، ولمّا وصل إلى بيته، فأزال عنه النجاسة واغتسل، فلم يزل يشمّ منه رائحة المسك حتى مات." (محمّد العريفي)

١٨. تنبيه الله بالأمر الدنيوي على الأمر الأخروي:

ينبّه اللهُ تعالى عبادَه بالأمر الدنيوي على الأمر الأخروي، فنبّه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ (البقرة: ١٩٧)

ونبّه باللباس الدنيوي على الأخروي في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (الأعراف : ٢٦)

ونبّه بالعطاء الدنيوي على العطاء الأخروي الجزيل في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ (يوسف: ٥٦ – ٥٧)

كما نبّه – سبحانه – بسير الدنيا على سير الآخرة في قوله: ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ (الزخرف: ١٤) أي: صائرون إليه بعد مماتنا.

والسرُّ في ذلك: ليكن العبد دائم الاتّصال بربّه، متيقظاً لحاله ، متزوداً لآخرته.

١٩. الفطنة صفة جميلة في كل شيء:

اللصوصيّة صفة قبيحة، ولكنّ اللصّ إن كان عاقلاً لم يجنِ على نفسه البلايا بالحمق، قال ابن القيم: " وهؤلاء إخوة يوسف، أبعدوه عن أبيه ليتقدموا عنده، وما عملوا أنّ حزنه عليه يشغله عنهم، وتهمة إياهم تبغضهم إليه، ورموه في الجبّ، فقالوا: ﴿يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ (يوسف: ١٠)، وليس هو بطفل إنما صبي كبير، وما علموا أنه إذا ألتقط يُحدث بحاله، وهذا تغفيل، ولمّا مضوا إليه يمتارون قال: ﴿ٱئۡتُونِي بِأَخٖ لَّكُم﴾ (يوسف: ٥٩) فلو فطنوا علموا أنّ ملك مصر لا غرض له في أخيهم.

(ابن القيم: ٢٠٠٣)

وصدق المتنبي:

لِكُلِّ داءٍ دَواءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ * * إلّا الحَماقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُداويها

o o o o

خاتمة الكتاب

الدنيا دارُ ابتلاء واختبار، إنْ صفت يوماً تكدرت أيامًا، وإنْ ضحكت ساعة، أبكت ساعات.

وصدق الشاعر:

جُبِلَتْ على كَدَرٍ وأنتَ تُرِيدُها * * * صَفْواً من الآلامِ والأَكّدَارِ

ومُكَلفُ الأيـامِ ضِدّ طَباعِها * * * مُتَطلبٌ في الماءِ جَذْوة نارِ

ويوسف الصدّيق عليه السلام، امتحن في هذه الدنيا امتحانات كثيرة، وابتلي ابتلاءات شديدة.

كان **أوّلها:** وهو حدثٌ صغير عندما احتال إخوته في التفريق بينه وبين أبيه، وألقوه في بئر مظلم بعيد.

وثانيها: أنه صار عبداً مملوكاً، بعدما كان حرًّا طليقاً، فعانى نار الرقّ، وعناء الخدمة.

وثالثها: " كيد امرأة العزيز له، بتغليق الأبواب، ودعائه إلى نفسها." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

ورابعها: " كيدها له بقولها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٥﴾ (يوسف: ٢٥) فكادته بالمراودة أوّلاً، وكادته بالكذب عليه ثانياً." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

وخامسها: " كيدها له حيث جمعت له النسوة، وأخرجته عليهن، تستعين بهنّ عليه، وتستعذر إليهن من شغفها به." (ابن القيم: ٢٠٠٢)

وسادسها: " كيد النسوة له، حتى استجار بالله تعالى من كيدهن، فقال: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٤﴾ (يوسف: ٣٣ – ٣٤)" (ابن القيم: ٢٠٠٢)

وسابعها: ابتلي بدخول السجن مظلوماً، ومكث فيه بضع سنين مقهوراً.

وثامنها: ابتلي بالخير حيث صار عزيز مصر، وصاحب الكلمة العليا فيها، فشكر، والابتلاء بالخير أصعب من الابتلاء بالشرّ، قال بعض السلف: " ابتلينا بالضراء فصبرنا وابتلينا بالسراء فلم نصبر." (محمّد المنجد: ٢٠٠٥)

وتاسعها: ابتلي بمغالبة النفس عن مرادها في التشفي والانْتقام ممّن أذاها، فقد عُرِضَ أمامه إخوته – الذين كادوا له – أذلاء محتاجين، فَغَلَبَ نفسه وعفا عنهم، وصفح الصفح الجميل.

وعاشرها: ابتلي بخبر عمى أبيه، فصبر حتى جمع الله شملهما.

هكذا كانت حياة الصدّيق يوسف ابتلاءات متتابعة، ومحن متوالية، وفي كل مرّة كان فيها كالطود الشامخ صابراً محتسباً حتى استحقّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (يوسف: ٢٤)

قائمة المراجع:

١. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، بدون دار نشر.

٢. إبراهيم بن موسى الشاطبي، الاعتصام، دار الكتب العلمية، ١٩٩١ م.

٣. إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، مكتبة الصفا، ٢٠٠٢ م.

٤. إسماعيل بن كثير الدمشقي، مختصر تفسير ابن كثير، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، دار التراث العربي للطباعة والنشر، ١٩٨٧ م.

٥. الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بدون سنة نشر.

٦. بدر الدين بن مالك الدمشقي الشهير بابن الناظم، المصباح في المعاني والبيان والبيع، دار الكتب العلمية، ٢٠٠١ م.

٧. خالد بن حامد الحازمي، مساوئ الأخلاق وأثرها على الأمة، وكالة المطبوعات والبحث العلمي وزارة الشؤون الإسلامية المملكة العربية السعودية، ١٤٢٥ هـ.

٨. خالد بن عثمان السبت، قواعد التفسير جمعاً ودراسة، دار ابن عفان، ١٤٢١ هـ.

٩. زكريا بن محمد الانصاري، فتح الرحمن شرح ما يتلبس من القرآن، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣ م.

١٠. شمس الدين ابن القيم الجوزية، إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان، دار ابن رجب، ٢٠٠٣ م.

١١. عبد الحميد إبراهيم، مقالات في النقد الأدبي، نادي الأدب في المنيا، ١٩٨٨ م.

١٢. عبد الرحمن السعدي، قصص الأنبياء، دار أضواء السلف، ٢٠٠٢ م.

١٣. عبد الرحمن السعدي، تيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، دار ابن الهيثم، ٢٠٠٠ م.
١٤. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، ١٩٦٦ م.
١٥. عدنان محمد الكحلوت، إعلام السادة النبلاء بسيرة صفوة العالمين من المرسلين والأنبياء، دار المنارة، ٢٠١١ م.
١٦. عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبين، مكتبة ابن سينا، ٢٠١٠ م.
١٧. عمرو بن بحر الجاحظ، مقتطفات من كتاب الحيوان، دار سعد مصر، بدون سنة نشر.
١٨. فضل عباس وسناء عباس ، إعجاز القرآن الكريم ، بدون دار نشر ، بدون سنة نشر.
١٩. محمد إبراهيم الحفناوي، الزواج، مكتبة الإيمان بالمنصورة، بدون سنة نشر.
٢٠. محمد خليل هراس، دعوة التوحيد، مكتبة الصحابة، بدون سنة نشر.
٢١. محمد علي الصابوني، النبوة والأنبياء، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.
٢٢. محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار الصابوني، بدون سنة نشر.
٢٣. محمد على الصابوني، روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن الكريم، دار الصابوني، ١٩٩١ م.
٢٤. محمد بن صالح العثيمين، شرح رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، دار البصيرة، ٢٠٠١ م.
٢٥. محمد بن عبد الرحمن العريفي، إنك ملكة، بدون دار نشر، بدون سنة نشر.
٢٦. محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار الحديث، ٢٠٠٢ م.

٢٧. محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل القرآن ، دار ابن حزم ، ٢٠٠٢ م.

٢٨. محمد علي أبو العباس، يوسف عليه السلام بين مكر الإخوة وكيد النسوة، مكتبة القرآن ، بدون سنة نشر.

٢٩. محمد بن محمد أبو شبهة، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ١٤٠٨ هـ.

٣٠. محمد صالح المنجد، سلسلة أعمال القلوب، دار الفجر، ٢٠٠٥ م.

٣١. محمود بن خليفة الجاسم، السحر والإصابة بالعين في ضوء الكتاب والسنة، دار ابن حزم، ١٩٩٣ م.

٣٢. محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار اليمامة، ٢٠٠١ م.

٣٣. مصطفى مراد، السبعة الذين تكلموا في المهد، دار الفجر، ١٩٩٩ م.

٣٤. يوسف القرضاوي، فتاوى معاصرة، دار القلم، ٢٠٠١ م.